مبادئ الفلسفة

مشكلة المعرفة



الجزء الأول

الثالث الثانوي الأدبي

١٩٧٠ - ١٩٧١



مبادئ الفلسفة

مشكلة المعرفة

الجزء الأول



الثالث الثانوي الأدبي

تأليف

انطون مقدسي

الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ مديرية المطبوعات والكتب المدرسية

١٩٧٠ - ١٩٧١

المقدمة

١ ـ الدور الذي تلعبه الفلسفة في برامجنا : ما من شك في أن الفلسفة تضيف الى ما حصله الطالب في مراحل دراسته كلها معلومات كثيرة وجديدة كل الجدة ، كعلم النفس والمنطق والأخلاق ودراسة السلوك الخ • ولكن ليست هذه الغاية الاساسية وانما هي تعويد الطالب نمطاً من التفكير لم يألفه بعد • لقد درس الطالب مثلا الرياضيات في أشكالها المختلفة (الحساب ـ الجبر ـ الهندسة) ولكن ما الغاية من الرياضيات ؟ ما الدور الذي تلعبه في حياة الانسان ؟ ما قيمتها ؟ ما حدود التفكير الرياضي ؟ هذه أسئلة لم يطرحها الطالب على ذاته ؟ وما يصح في الرياضيات يصح أيضاً في الفيزياء والتاريخ والاجتماع والأخلاق والعلوم الأخرى • ان العلوم على اختلافها تعود الطالب التفكير في موضوعات غالبا مالا يدرك الروابط التي تضم بعضها الى بعضها الآخر • فالفلسفة تسد هذا الفراغ اذ تمرنه على الاحاطة بمجموع المشكلات التي تثيرها المعارف الانسانية فيحاول أن يدركها في كلياتها وفي المبادىء الاولى التي تستند اليها •

ان لكل علم من العلوم طريقته الخاصة فالتفكير الرياضي يختلف في نهجه عن التاريخ • ولكن ما الطريقة بشكل عام ؟ وما الطريقة التي يستخدمها العقل الانساني لكي ينشىء العلوم ، وبذات الوقت ينشىء ذاته •

فالفلسفة إذاً التفكير الكلي أي هذا النمط من التفكير الذي يعود الطالب النظرة الشاملة والعميقة أو النظرة التأليفية (التركيبية) وهي أيضاً تأمل في الطريقة التي يستخدمها العقل في نموه •

إنها مزيد من الوعي تتطلبه منا المرحلة التاريخية الراهنة اذ علينا أن نفهم فيها (أي في هذه المرحلة) ما يطرحه علينا العلم والعمل من مشكلات •

وهي أيضاً مزيد من العقل فالحضارة الحديثة التي بدأنا ننتسب اليها ونسهم في انشائها تقتضي منا فهما دقيقا لما تطرحه علينا من مشكلات •

ولهذا خصص البرنامج الجديد خمس ساعات اسبوعية للفلسفة •

٢ ـ **التقسيم التقليدي والتقسيم الجديد للفلسفة :** كانت الفلسفة في البرامج القديمة تقسم الى : علم نفس ـ ومنطق ـ وأخلاق ـ وفلسفة عامة وكان الطالب يدرس هذه المواد المختلفة في أهم أقسامها وأهم نظرياتها وكأنه يضيف الى ما درسه من علوم علوما أخرى تثقل ذاكرته دون أن تنمي عقله تنمية كافية فأدخل البرنامج الجديد على هذا التقسيم الكلاسيكي التقليدي تعديلا جذريا ، وذلك في الأمور التالية :

أ ـ ركّز أقسام الفلسفة المختلفة حول محورين أو حول مشكلتين : المعرفة والعمل • وجعل الدراسة لكل من هاتين المشكلتين على ثلاث مستويات : المستوى النفسي فالمستوى المنطقي فالمستوى الفلسفي للمعرفة ، والمستوى النفسي فالمستوى الفلسفي للعمل •

ب ـ خفف ما أمكن من النظريات ومن المواد أيضاً • ان بعض الأسئلة التي تطرحها الفلسفة على الانسان قديمة قدم العالم • فما برح الانسان منذ أن وُجد يتساءل : ما الخير والشر ؟ ما العقل والعلم ؟ ما الحرية الخ ولكل من هذه الاسئلة في كل عصر وعند كل فيلسوف أكثر من جواب • وليس المقصود من دراسة الفلسفة أن يعرف الطالب كل الاسئلة ولا بالاحرى كل الاجوبة ، وانما عليه أن يألف التفكير الفلسفي بشكل عام وأن يطبقه على واقعه فينتقل من المشكلة كما تبدو له في بيئته وفي القرن العشرين الى شكلها العام •

وليس المطلوب من الانسان أن يتعلم كل المواد الفلسفية فهذا أمر محال

وانما عليه أن يتعمق في بعضها • ولهـذا اقتصر البرنامج مثلا في العلوم الانسانية على التاريخ وفي العلوم الطبيعية على الفيزياء وفي الأخلاق على بعض القيم كالواجب والخير الخ ، وفي علـم النفس على بعض الموضوعات التي تساعده على فهم المعرفة والعمل •

وبكلمة مختصرة فان الفلسفة طريقة وتعميق لا تجميع للمعلومات ولقد وضعت الكتب بالاستناد الىهذا المبدأ : النوع لا الكم، والتعميق لا الكثرة•

ج ـ وكما أن البرنامج رُكز حول مشكلتين فقط (المعرفة والعمل) فلقد رُكز أيضا حول موضوعين أساسيين هما اللذان يتناقش فيهما الفكر الحديث أي العقل والحرية • فالعقل الانساني ينشىء المعرفة حراً ، وينشىء الأخلاق حرا فاذا تمكن الطالب من أن يفهم هذين الموضوعين معا فهما دقيقا بتطبيقهما على مشكلات عصره ومجتمعه يكون قد حقق الغرض من دراسة الفلسفة •

د ـ ولقد أضاف البرنامج الى الموضوعات التقليدية التي كانت تعالجها الفلسفة سابقا بعض الموضوعات التي أثارها العلم في عصرنا مثلا موضوع اللا حتمية واللا تعيين في العـلم • ومنها ايضاً في العمـل التقنية ، العمل الانساني كمصدر للقيم • وهذا ما يتطلب من المدرس جهدا اضافيا اذ يعود الى بعض المصادر الاساسية التي تعالج هذه الموضوعات وسنشير الى هذه الكتب •

٣ ـ **منهج التدريس** : لا يمكن للطالب ان يفهـم المشكلات الفلسفية الا اذا لاحظها في واقعه المباشر وانتقل من هذا الواقع الى كلياتها أي الى المفاهيم العامة التي ينتظم ضمنها هذا الواقع • ولهذا حرص المؤلفون على :

أ ـ الاكثار من التمرينات العملية والأسئلة النظرية • أما التمرينات فغايتها تعويد الطالب الرجوع الى واقعه ودراسته عمليا على ضوء النظريات التي كان قد شرحها له الاستاذ سابقا ايحائية (كما يقال في علم التربية) أي تتضمن

الجواب أو تقتضي من الطالب أن يعيد بأسلوبه الخاص ما قرأه في الدرس أو شرحه له الاستاذ . أما الاسئلة الجديدة فتوجه الى ذكاء الطالب فهي تفترض الموازنة بين النظريات من جهة ومن جهة أخرى بين النظرياتوالواقع.

ب ــ اضافة نصوص وُضعت، في كتاب المعرفة بعد التمريناتوالاسئلة ، وفي كتاب العمل كُتبت بحرف صغير ، وعلى المدرس أن يقرأ ، مع طلابه ، كل هذه النصوص والا فليقرأ أهمها ثم يحللها ، وكما أن الطالب لا يتعلم الأدب الا اذا قرأ آثار كبار الادباء كذلك في الفلسفة عليه أن يقرأ بعض ما كتبه كبار الفلاسفة . والواقع أن الثقافة تُكتسب من النصوص أي من الحوار الذي ينشأ بين طالب المعرفة وما كتبه العباقرة . ولهذا نرجو من الأساتذة أن يولوا هذه النصوص ما تستحقه من عناية .

٤ ــ **ان الفلسفة هي العقل ذاته بكل ابعاده :** العقل الذي ينشىء المعرفة وينتقد ما أنشأ لينميه واذا لم تُدرس على هذا الاساس فلا فائدة ترجى منها.



قلنا ان البرنامج جديد والتأليف فيه أيضاً جديد ، ولهذا فما من شك أن الكتابين (المعرفة والعمل) اللذين نقدمهما للاساتذة والطلاب يقعان تحت اعتراضات كثيرة فنرجو الأساتذة الأكارمأن يحاولوا فهم روح البرنامج وابداء ملاحظاتهم الجزئية والكلية عليه وعلىالمؤلفين ثم يرسلوها الى مديرية البحوث لتعدّل الكتب على أساسها في العام القادم ان شاء الله .

ملاحظة

يدرّس هذا الكتاب خلال الفصل الدراسي الأول .

مدخل

١ ـ المعرفة والعمل :

ترافق المعرفة الانسان ، منذ اللحظات الاولى في حياته ، فالطفل الذي يبتسم لأمه ويقذف بذاته نحوها ، أو يمد يديه اليها لتحتضنه يدل بهذه الحركات وغيرها مما يشبهها على أنه قد تعرّفها وميّز بينها وبين الأشياء التي تحيط به ، والولد عندما يرفض هذه اللعبة ويأخذ تلك فهو قد وازن ضمنا بينهما وفضل الواحدة على الأخرى ، شأنه في ذلك عمليا شأن الراشد الذي اذ يأكل تفاحة يحكم ضمنا أنها أشهى ما في الطبق ، والفتاة التي اذ تنتقي قطعة نسيج فلشعورها أنها أجمل من كل ما هو معروض في دكان البائع .

في هذا المستوى من المعرفة يتساوى أحياناً الحيوان مع الانسان . فالنملة تتعرف بغريزتها حبات القمح فتنقلها الواحدة تلو الأخرى الى وكرها لتجمع منها مؤونة تأكلها في أيام الشتاء ، والنحلة في طيرانها المستمر تحط على الزهرة التي تستطيع أن تمتص رحيقها ، وتبتعد عن بقية النباتات .

واذا انتقلنا من الحشرات الى حيوانات أعقد تركيبا نلاحظ ذات السلوك وقد أخذ شكلاً أكمل من السابق ، فالكلب يعتمد على الشم ليميز اللحوم من غيرها من الأطعمة ، والقط يستخدم وسائل قد تكون أدق من تلك التي يستخدمها الصياد الماهر ليقتنص الفئران أو الطيور الصغيرة ، فهو يكمن لها وينقطع عن الحركة تمام الانقطاع حتى اذا أصبحت واحدة منها بمتناول يده قفز عليها فاذا بها في جوفه .

وقد لاحظ علماء النفس أن بوسع الشمبانزي والغوريلا وغيرهما من القردة أن تصطنع ما يشبه الآلة للحصول على غذائها ، فهي تأخذ عصا وتضرب قرص الموز لترميه وتأكله أو تضع صندوقا فوق آخر لتطاله ، ويتكلم بهذه المناسبة علماء النفس عن ذكاء حيواني ، أي عن قوة حدس قابلة للتربية والنمو .

والانسان الراشد قد يتصرف في كثير من الأحيان كالطفل والولد والحيوان ليسد حاجاته الأساسية أو يدافع عن نفسه اذا ما هوجم أو تعرض لخطر ما •

« هذه معرفة •••

ولكنها معرفة أولية بدائية ، ونطلق عليها اسم « معرفة عملية » لأنها ذات غاية نفعية مباشرة تمليها على الكائن الحي (حيوانا كان أو انسانا) غريزته وحاجته الى التلاؤم مع محيطه •

ان الطبيعة متنوعة في أقاليمها وبالتالي فيما يمكن أن تقدمه للكائن الحي من موارد رزق ، فمن البديهي أن الصحراء عريها وجفافها وقلة مواردها تختلف اختلافا جذريا عن خط الاستواء حيث تتفنن الطبيعة في العطاء ، فالنباتات تنمو بسرعة مذهلة وثمارها وافرة وكذلك السهل فهو يختلف عن الجبل أو عن الشاطىء •

وللكائن الحي حاجات متعددة منها بشكل خاص الغذاء والشراب واتقاء تقلبات الأعراض الجوية ، عليه أن يجدها في محيطه أياً كان والا تعرض للفناء •

فالانسجام بين الكائن الحي ومحيطه هو ما يسميه علم النفس بالتلاؤم •

ونلاحظ أن الانسان منذ أن وجد على وجه الارض في عراك مع بيئته ، يحاول أن يستفيد منها ويسخرها لأغراضه ، يؤثر فيها وتؤثر فيه • فقد دجن الحيوانات (الحمار ، الحصان ، الدجاج ، الخ •••) وغير نوع النباتات والاشجار المثمرة • فازدادت فائدته منها ، ولكن منذ أن أوجد الآلة الحديثة باكتشاف منابع الطاقة ــ البخارية فالكهربائية فالنووية ــ تمكن من السير بسرعة في طريق اخضاع الطبيعة لمشيئته ، فبعد أن كان يقطع المسافات الطويلة سيرا على الأقدام أو على الجمل والحصان أصبح الآن يستخدم القطار والباخرة والسيارة والطائرة ، وعما قريب سيحط رحاله على سطح القمر وغيره من الكواكب •

وهذا نمط من التلاؤم أكمل بكثير من تلاؤم الحيوانات أو من تلاؤم الانسان قبل الآلة مع البيئة •

فلمـــــاذا ؟

لأنه يستند الى المعرفة النظرية ، أي في العلم والفلسفة .

فالبون شاسع بين الحيوان الذي يرى الشجرة فيتسلقها ليتغذى من ثمارها ، حتى إذا ما اكتفى تركها وشأنها ، وبين الانسان الذي يقطف الثمار نفسها فيأكل منها ما يأكل ثم يجفف الباقي ويحتفظ به ليأكل حين تتوقف الطبيعة عن العطاء ، وما يصح في الأثمار يصح في اللحوم •

وان البون شاسع بين الانسان في السابق وبين الانسان الذي كونته الفلسفة والعلوم الوضعية في أيامنا ، ونرى النموذجين بعدد وافر في بلادنا الواحد يعيش الى جانب الآخر •

فالأول معرفته عملية والثاني معرفته نظرية •

ان المعرفة العملية تنتج عن الخبرة الطويلة ، خبرة الاجداد تنتقل الى الاحفاد ، فالعامة من الناس (وكلنا لحد ما ، بمعنى ما من عامة الناس) يعرفون أن السوائل الساخنة وتغطيس الارجل بالماء الحار قبل النوم من العلاجات الناجعة في مكافحة الزكام وكل أنواع (الرشوحات) فهي وصفة مجربة ، ولكنهم يجهلون الصلة بين الداء والدواء ، أما الطبيب العالم فيعرف السبب الحقيقي ، أي الجرثومة التي أدت الى المرض ، كما يعرف الدواء الذي يقضي على الجرثومة ، أي الأنتي بيوتيك (مضادات العفونة) لان العلم كان قد حلل في المخبر المرض وربط السبب بالنتيجة ربطا عقليا •

فالتلاؤم مع البيئة عند الحيوان والطفل يستند الى الغريزة ، وعند الانسان العادي يستند الى التجربة ، أما معرفة العالم فتستند الى العقل النظري ، ولذا فهي تؤدي الى تلاؤم أكمل مما هي عليه الحال في الوضعين السابقين •

ومن ثم فان المعرفة العلمية قابلة للنمو الى مالا نهاية له ، وهذا النمو هو الذي يميزها من غيرها من أنماط المعرفة ، ان الحيوان لا يتغير ولا يتقدم سلوكه الا ضمن حدود جزئية ، ولذا فاذا ما اختل التوازن بينه وبين البيئة لسبب أو لآخر ، كأن ينتقل من مناخ حار الى مناخ بارد فهو كثيرا ما يموت •

والانسان العادي الذي يقوم سلوكه على ما خلفه له أجداده من خبرة لا تتقدم معرفته الا ببطء ، وسلوكه لا يتبدل الا بصعوبة وقد تجمد معرفته فتتحول الى

خرافات أو الى ما يشبه السحر • أما العلم فيكيف البيئة بالشكل الـذي يضمن للانسان لا البقـاء فحسب بل الرفاهية أيضاً ، فباستطاعة الانسان في أيامنـا أن يعيش في الصحراء القاحلة ، الجافة ذات الحرارة المرتفعة كما يعيش في المدينة تماماً ، وسهل الغاب مثلا في سورية أصبح بوساطة العلم موردا لخيرات كثيرة بعد أن كان مستنقعا كبيرا يعج بأنواع الحشرات والجراثيم •

ان التقدم في التلاؤم ، تقـدم في الحضارة تم بواسطة العلم النظري •

ويستهدف العلم ، أول ما يستهدف ، الكشف عن قوانين الاشياء ونظم الطبيعة كما سنرى ، فهو يمكن الانسان من معرفة الاشياء كما هي ، لا كما تبدو لشعورنا وادراكنا ، وبهذا المعنى يقال عنه انه موضوعي •

ولنلاحظ أخيرا أن الانسان ــ كل انسان ــ يستخدم هذه الانماط الثلاثة من السلوك ، فهو يعتمد على غريزته وعلى تجربة مجتمعه وعلى عقله ليتلاءم مع بيئته الطبيعية والاجتماعية • ان شخصيته تحمل بذور المعرفة العادية أو العامية والمعرفة العلمية ، فالولد الذي يفكك سيارته الصغيرة أو يحطمها ليعرف مافي داخلها يتصرف تصرف العالم الذي يحلل الماء الى هيدروجين وأوكسجين ليعرف تركيبه أو يفجر الذرة ليعرف أسرارها وخفاياها ومن ثم ليستخدمها • ولكن تقدم الانسان يقوم على اخضاع الغريزة للتجربة والتجربة للعقل النظري لأن العقل النظري هو الحكم الاول والاخير في شؤون العلم والمعرفة •

ومع ذلك فعقل الانسان لا يقف ولا يمكنه أن يقف عند حدود المعرفة العلمية مهما كانت دقيقة ، فتطلعاته أبعد بكثير من العلم ذاته الذي يكشف عن القوانين والنظم • انه يريد بارادة عميقة وجلية أن يعرف ما هو أبعد من ذلك بكثير ، فهو يتساءل عن غاية الأشياء وأصلها ، يتساءل عن وجوده ما هو ؟ ما معناه ؟ ما هدفه الاخير ؟ يتساءل عن المبادىء الأولى التي يرتكز عليها العلم ، يتساءل عن الاسباب الأولى والغايات القصوى •

وهذه التساؤلات هي من شأن المعرفة الفلسفية التي تتخطى بآن واحد الغريزة والتجربة والعلم النظري •

وكما أن كل انسان يستخدم في سلوكه ، (أحيانا بآن واحـد) الغريزة والتجربة والعقل ، كما أن كل انسان بوسعه أن يعرف بمعرفة عامية وعلمية ، فكل انسان يستند في سلوكه الى فلسفة ضمنية أو صريحة ، انه فيلسوف ضمن حدوده كالسيد جوردان الذي كان يتكلم نثراً دون أن يدري • عندما يزعم امرؤ ان غاية الحياة هي المنفعة أو اللذة ، الربح أو الجاه ـــ وهذا خطأ ـــ فهو ينشيء لذاته فلسفة يسير على هديها ، ولكن شتان ما بين هذا وذلك الذي يرى المثل الاعلى للوجود الانساني في النضال لتحقيق مثل أعلى قومي (الوحدة العربية) أو اجتماعي (تحقيق العدالة الاجتماعية في الاشتراكية) أو يرى أن الوجود الانساني يتطلع الى تحقيق الحرية التي هي غاية الغايات في الحياة الدنيا •

وكما أن كل انسان فيلسوف عندما يتساءل عن الغاية من وجوده ومن الوجود بشكل عام فهو فيلسوف عندما يتساءل عن مبدأ الوجود وأسبابه •

وسنرى في القسم الثالث من هذا الكتاب أن المعرفة تطرح على عقولناسؤالا" أساسياً هو قيمتها •

٢ ـــ مستويات دراسة المعرفة :

ينتج مما تقدم أن الانسان كائن عامل وكائن عاقل بآن واحد ، ولا يمكن الفصل بين الاثنين •

كائن عامل : لأنه ينشط لغايات وأسباب كثيرة منها التلاؤم مع البيئة كما رأيناه

كائن عاقل : لأن عمله لا يكون صحيحا وسلوكه لا يكون سليما الا" اذا قام على أسس نظرية واضحة ، فعندما تقوم المدرسة برحلة للترفيه عن الطلاب تضع خطة مسبقة تجعل الفائدة أعمق وأكمل مما لو كانت الرحلة متروكة للمصادفة • والدولة الحديثة تضـع لبناء مستقبلها خطة (خمسية أو عشريـة) مستندة الى الاحصاءات كي تحقق هدف المجتمع فتزيد الانتاج وتوزعه على شكل يضمن لكل انسان حقه •

ولما كانت مسألة (العمل وأهدافه) موضوع كتاب آخر يدرسه الطلاب في

هذا الصف اقتصرنا في كتابنا على بحث مسألة (المعرفة) فندرسها من ثلاثة أوجه أو في ثلاثة مستويات هي :

المستوى النفسي .
المستوى المنطقي .
المستوى الفلسفي .

آ ـ المستوى النفسي لدراسة المعرفة :

أعرف قبل أي تفكير أنني اذا القيت قطعة خشب في الماء فهي تطفو على وجهه بعكس قطعة الحديد التي تسقط الى قعره ، وان الورقة اذا رميت في الهـواء فستجرف مع تياره .

هذه المعرفة بديهية ولكنها لم تكن دوماً كذلك ، لقد اكتسبتها منذ الصغر ، علمتني اياها التجربة وارشادات أهلي ، فكيف اكتسبتها ؟

بملاحظتها مرارا والانتباه اليها ، فعندما أرى واقعة أحفظها بذاكرتي ، واذا رأيت مثلها وازنت بين الاولى والثانية ، أي قمت بعملية محاكمة عقلية أدت بي الى هذه النتيجة العامة ، أو الصحيحة في كل زمان ومكان وهي أن الاشياء الثقيلة تقع على الارض اذا رميتها بعكس الاشياء الخفيفة . فهناك اذاً جملة عمليات نفسية هي التي مكنتني من الحصول على معارفي ، منها الادراك والشعور والانتباه ، الذاكرة والخيال ، قوة المحاكمة والاستقراء أو العقل .

فما هذه العمليات النفسية وكيف تتم ؟ علم النفس هو الذي يمكنني من الاجابة عن هذا السؤال بتحليل قوى النفس ، ولهذا فسندرس الباب الاول من كتابنا ، بالاستناد الى علم النفس ، الشروط النفسية لاكتساب المعرفة .

ب ـ المستوى المنطقي لدراسة المعرفة :

يعرف الجميع واقعة سقوط الاجسام ، أما قانون سقوط الاجسام الذي ندرسه في الفيزياء فنيوتن علمنا اياه عندما كشف عنه .

لا يختلف اكتساب المعرفة العلمية من الوجهة النفسية عن اكتساب المعرفة العادية

في العامية ، ولكن نيوتن الذي رأى واقعة السقوط كما نراها كلنا وكان يعرفها • كما نعرفها كلنا لم يتمكن من الكشف عن قانونها الا لأنــه حقق بالاضافة الى الشروط النفسية شروطاً أخرى نطلق عليها اسم :

الشروط المنطقية :

لقد وضع فرضية ، ثم على ضوئها أعاد التجربة مراراً وتكراراً وفي ظروف مختلفة كي يحقق فرضيته ، أي كي يثبت صحتها ويحولها الى قانون علمي موضوعي يتخطى الظواهر التي نرى كلنا لينفذ الى أعماقها •

هذه الشروط المنطقية هي موضوع الباب الثاني من كتابنا •

جـ ـ المستوى الفلسفي لدراسة المعرفة :

عندما نكشف الاساسين النفسي والمنطقي للعلم لا نكون قد حللنا كل عملية المعرفة • ان العقل الانساني لا يقنع بمثل هذا • انه لا يقف عند حد فهو يتساءل عن الفضاء الخارجي وعما يحتويه من أشعة كونية تتحكم في مصير كرتنا الارضية وبالتالي في مصيرنا ، يتساءل عن القمر وعن المواد التي يتألف منها •

وكما أن معارفنا تمتد في المكان فهي تمتد في الزمان • ان علم الاجتماع لا يبحث في الواقع الاجتماعي الراهن ، بل في ماضيه أيضا ، في الاقوام البدائية ، تلك التي تعيش خارج الحضارة وعلم التاريخ يبحث فيما قبل التاريخ (أي قبل أن يبدأ الانسان بتسجيل حوادثه) •

ولكن ما قيمة هذه المعارف ! أهي يقينية ؟ وما درجة صحتها ؟

لقد حطم الانسان الذرة دون أن يراها ، لا بالعين المجردة ولا بالمجهر ، ولا بأي آلة أخرى ، فما مدى صحة قوانين الذرة ؟

ان العقل يتساءل عن ذاته أيضاً وهو يضع ذاته موضع بحث : ما قيمته ؟ ما حدوده ؟

هذه الأسئلة وما يشبهها عن قيمة العلم وعن قيمة العقل هي ما نسميه المستوى الفلسفي لدراسة المعرفة •

لقد حصل الطالب على معارف وعلوم كثيرة خلال دراسته ان في الرياضيات أو في العلوم الطبيعية (الفيزياء ، وظائف الاعضاء ، الخ ••) أو في العلوم الانسانية (التاريخ المجتمع ، الخ ••) وعليه الآن أن يلقي نظرة فاحصة على هذه العلوم فيعرف أولا كيف اكتسبها ، ثانيا كيف تكونت عند العلماء الذين وضعوها ، ثالثا وأخيرا ما قيمتها وما حدودها ، وهذا ما يسمونه في الفلسفة النظرية الانتقادية •

وسنخصص الباب الثالث من هذا الكتاب لدراستها فندرس العلم في وجهه الفلسفي •

٣ ـ خلاصة :

أ ـ يعتمد الانسان في سلوكه وكي يتلاءم مع بيئته على الغريزة والتجربة والعقل ويقوم تقدم الانسان على اخضاعه الغريزة والتجربة للعقل •

ب ـ المعرفة نوعان : معرفة عامية أو عادية ، ومعرفة علمية أو نظرية ، وتحقق المعرفة النظرية للانسان أكمل سلوك ممكن وأعلى نمط من أنماط التلاؤم مع البيئة فهي تكشف عن قوانين الأشياء ونظم الكون وبذلك تمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة واخضاعها لمشيئته •

ج ـ موضوع هذا الكتاب دراسة المعرفة في أكمل أشكالها ، أي العلم النظري كما يبدو لنا في العلوم الوضعية : الفيزياء ، الكيمياء ، الرياضيات ، التاريخ ، الخ ••

د ـ مستويات دراسة المعرفة واقسام الكتاب :

١ ـ المستوى النفسي ، وفيه نبحث العمليات النفسية التي يتم بوساطتها تحصيل المعرفة بكل أنواعها •

٢ ـ المستوى المنطقي : وفيه ندرس الشروط التي تمكن العالم من الكشف عن قوانين الاشياء •

٣ ـ المستوى الفلسفي : وفيه ندرس قيمة العلم والعقل •

الباب الأول

الوجه النفسي للمعرفة

الفصل الأول

الإدراك

١ ـ مدخل

أنا الآن أمام منضدتي وعليها كتبي ودفاتري وأوراقي وأقلامي ومحبرتي ، تتوسطها طاقة زهر • انني أحضر الامتحان وأنا مستغرق في أفكاري • وفجأة أرفع رأسي فأتعرف الاشياء التي علی المنضدة فأعدها وأسميها • هـذا كتـاب الرياضيات وذاك كتاب الفلسفة ، هذا كتاب الفيزياء وذاك كتاب التاريخ ، كما أستطيع إذا أحببت أن أتسلى ، أن أتأمل طاقة الزهر : انها ذات لون وردي وأوراق خضر ، أشم رائحتها التي تنبعث ناعمة وتملأ عالمي الصغير بأريجها • وألتفت فجأة الى الوراء فأرى الاشياء التي تملأ الغرفة الصغيرة : هنا كرسي وهنا مقعد مستطيل ، وفي صدر الغرفة مكتبتي الصغيرة : لقد وضعت فيها كتب الصف الاول والثاني والكتب التي أرغب في مطالعتها • أستطيع أن أعد هذه الكتب وأن أسميها وأذكر محتوياتها • واذا ما دققت بجانب النافذة أرى الشارع وأتعرف فيه المارين والسيارات التي تعدو مسرعة • ويمتد بي النظر فأرى بيوت مدينتي وشوارعها التي تمتد من النقطة التي أنا فيها الآن الى الأفق البعيد حيث يخيل الي أن السماء تلتقي بالأرض •

هذا التعرف الى الاشياء المحيطة بي يطلق علم النفس اسم الادراك ويعرّفه بأنه معرفة العالم الخارجي والأشياء التي فيه بواسطة الحواس •

هذه المعرفة عملية ونظرية بآن واحد :

عملية : لأنني بواسطتها أتلاءم مع بيئتي فأنا لا أنتبه الى هذا الكتاب الا لأنني بحاجة اليه ، ولا أنظر الى هذا البيت الا لأن لي فيه رفيقا سأزوره • الخ •

نظرية : لأنني أستطيع ، اذا ما سئلت عن هذا الشيء ، أن أقول ما هو وأن أتحدث عن طبيعته .

ان كل معرفة ، كما سنرى في هذا الكتاب ، تتضمن وجها عمليا ووجها نظريا .

وتبدو لي معرفة الاشياء الخارجية المحيطة بي بديهية وبسيطة لأني بلا عناء أسمي موجودات بيئتي وأستخدمها ولكنها لم تكن دوما كذلك ، فالادراك نتيجة لخبرة طويلة وهو عملية نفسية معقدة .

الادراك نتيجة لخبرة طويلة : فالطفل في السنة الأولى من حياته لا يعرف من بيئته الا القليل مما هو بحاجة اليه ، ولا تصبح البيئة أليفة بالنسبة اليه الا بعد سنوات طويلة من التجربة والتعلم .

الادراك عملية معقدة لأنه يستلزم أكثر من قوة نفسية . في الادراك تشترك الذاكرة والخيال والعقل كما سنرى .

٢ ـ الاحساس

عرّفنا الادراك بأنه معرفة العالم الخارجي والاشياء التي يتألف منها بواسطة الحواس . فالإحساس شرط لازم ولكنه غير كاف للادراك . ان حواسي تنقل الي من العالم الخارجي اللون والشكل ، الطعوم والروائح ، الأحداث والحركات ، الخ . وأنا أختار من معطيات الحواس هذه ما أنا بحاجة اليه . فنقل الاحاسيس من شأن الحواس ، والاختيار من شأن العقل .

فلنحلل أولاً دور الحواس في انشاء الادراك .

١ ـ تحليل الاحساس :

القلم على المنضدة ، ها هو يقع على الارض وأنتبه لصوته ، فاما أن أمد يدي وأتناوله واما أن أرى أن لا حاجة لي به فأتركه وأواصل عملي .

ان تحليل هذه الواقعة البسيطة يمكننا من معرفة آلية الاحساس : هناك الشيء الذي وقع (القلم) وأحدث اصطدامه بالارض اهتزازات انتقلت بواسطة الهواء الى أذني فأحدث فيها أثراً نبّه الاعصاب التي تسجله وتنقله الى المراكز الدماغية . وتعرف هذه الاعصاب باسم (الاعصاب الموردة) ويأتي الجواب أو رد الفعل بواسطة اعصاب اخرى تعرف باسم (الاعصاب المصدرة) .

أولاً ـ فعناصر الاحساس هي اذاً :

١ ـ المؤثر الذي يحدث التنبيه .

٢ ـ الاعصاب الموردة والاعصاب المصدرة .

٣ ـ والمراكز الدماغية وهي النخاع الشوكي والنخاع المستطيل والمخ والقشرة الدماغية وتعرف أيضاً بـ (اللحاء) .

ثانياً ـ وعملياته الاساسية او مراحله الثلاث :

١ ـ مرحلة فيزيائية وهي تأثير الاشياء الخارجية في الاطراف العصبية ، كاللون والشكل في العين والروائح في الانف والاصوات في الاذن الخ . ونطلق على هذه المرحلة اسم فيزيائية لانها نتيجة للتلاقي بين جسمين .

٢ ـ المرحلة الفيزيولوجية وهي التي تجري في الاعصاب وفي المراكز العصبية وتقوم على انتقال الاثر من الاطراف الى المراكز ، ونطلق عليها اسم فيزيولوجية لانها تتم داخل الجسم دون ان يكون للنفس أي تأثير في حدوثها .

٣ ـ المرحلة التنفسية وقوامها رد الفعل من قبل الانسان . كأن أشم الزهرة أو اعرض عنها ، ألتقط القلم أو أتركه في الارض ، آكل التفاحة أو أدعها وشأنها لأني لست جائعاً .

ثالثاً ـ العتبـة :

لا يتم التنبيه الا اذا كان للمؤثر حد أدنى من الشدة فاللسان مثلا لا يشعر بشيء يمسه اذا كان أقل من غرامين ، وطرف الاصبع يلزمه ثلاثة غرامات ليحس بالشيء الخارجي أما بطن القدم فيلزمه خمسة وعشرين غراماً ، ونطلق على هذا الحد الادنى اسم **العتبة المطلقة** . اذ مبدئياً يجب أن يتأثر بها الجسم ويشعر بها الانسان اذا حدثت . ولكن يختلف وقع المنبه باختلاف حالة الشخص من تعب أو راحة ، وانتباه أو شرود ، ومن الواضح أن الفنان يميز بين الاصوات وتناسقها بمهارة لا يملكها غيره . **العتبة الفرقية** وتطلق على الاحساس بالزيادة أو النقصان ، فاذا وضعنا على ساعد الانسان وزنا قدره ثمانون غراما فهو لا يشعر باختلاف شدة الضغط الا اذا أضفنا واحدا من عشرين من وزن المنبه أي أربعة غرامات .

ب ـ تصنيف الحساسيات :

لقد بيّن علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) أن الحواس أكثر من خمس ،

ويصنفون اليوم الحسيات في ثلاث زمر :

اولاً ـ الحساسية الباطنة العامة : أو الحشوية وتشمل كل الأحاسيس المغمضة التي تصدر عن وظائف الجسم الداخلية كالشعور بضيق التنفس أو بالارتياح بالرضى أو بالضجر ، بالتقزز أو بالتعب ، ولا تحصل هذه الأحاسيس الا اذا حدث اختلال في الوظائف الداخلية كزيادة أو نقصان بعض المواد الكيماوية في الدم وتظهر بشكل خاص في الحالات المرضية وهي في مجموعها انفعال جسمي نفساني، أما في الحالات الطبيعية فلا نشعر بحركات اعضائنا الداخلية (المعدة ، الامعاء ، جهاز التنفس ، المثانة الخ) •

ثانياً ـ الحساسية الباطنة الخاصة : وتشمل حاستين بشكل خاص : الحركة والتوازن • ومن مظاهرها بشكل خاص ما يلي : الاحساس بتحريك الجسم وانتقاله بالنسبة الى الاتجاهات المكانية الثلاثة (فوق ــ تحت ــ يمين ــ يسار ــ أمام ــ خلف) وتظهر عند الطيار الهابط بواسطة المظلة ، الاحساس بالضغط العميق أو بالجهد والمقاومة والتعب •

ومراكز هذه الحساسية المفاصل والأوتار والعضلات للحركة ، والأذن (الجهاز التيهي في الأذن الباطنة) للتوازن • وتتميز على الحساسية الحشوية في أن لها مراكز خاصة لتلقي التنبيهات (الأذن والعضلات والاوتار) على حين لا تملك تلك مثلها •

ثالثاً ـ الحساسية المستقبلة للتنبيهات الخارجية : وهي أهم الحواس وأكثرها شأناً في حياتنا ، وتشمل :

١ ـ **اللمس** : وهو مؤلف من عدة أحاسيس منها : الاحساس بالتماس والضغط، الاحساس بالألم ، الاحساس بالبرودة ، الاحساس بالسخونة ، ولكل من هذه الأحاسيس أطراف عصبية خاصة • ولهذا يرى العلماء أن اللمس ليس حاسة واحدة بل عدة حواس •

٢ ـ **الذوق** : ويُطلق عليه الحساسية الكيماوية لأنه نتيجة لتبدلات كيماوية تحدث في اللسان • وهو مركز الاحساس بالطعوم الاساسية أي الحامض ، والمِلْح والحلو والمر •

٣ ـ **الشم** : وهو ايضا حساسية كيماوية مركزها الانف ، ويختلف الشم عن الذوق بأن هذا الاخير يتأثر بالتماس المباشر أما الأول فينفعل عن بعد .

وللذوق علاقة مباشرة بالشم ، فعندما يضعف الشم (كما في حالة الزكام) يضعف الذوق .

٤ ـ **البصر** : ويقوم على تلقي التنبيهات الضوئية وعلى ادراك اشكال الاشياء وخصائصها الهندسية من عمق ، وبروز ، وأبعاد . آلة فوتوغرافية تنطبع فيها الأشياء معكوسة وقوة التمييز فينا هي التي تصححها .

٥ ـ **السمع** : ويقوم على التقاط الموجات الهوائية عن طريق الطبلة والعظيمات كما هو معروف في التشريح . ويميز السمع في الصوت بين خصائصه الثلاث : الشدة أو سعة الموجة ، التذبذب أو طول الموجة ، ثم درجة التركيب .

والأذن تدرك الذبذبات الصوتية بين عشرين ، وعشرين ألف ذبذبة في الثانية ، وهما العتبة المطلقة العليا والعتبة المطلقة الدنيا .

ج ـ **وظيفة الاحساس** :

للاحساس وظيفتان أساسيتان : وظيفة حيوية ووظيفة عقلية . فهو من جهة أداة تلاؤم بين الكائن الحي وبيئته ، ومن جهة ثانية وسيلة من وسائل اكتساب المعرفة . والوظيفة الأولى أهم من الثانية ، فالحيوانات تكاد تعتمد على حواسها وحدها (بالاضافة الى الغريزة) لتجد غذاءها وتتقي المخاطر وتضمن بقاءها . ان الكلب مثلا يعتمد بالدرجة الأولى على حاسة الشم ليميز بين ما هـو ضار وما هو نافع في المأكولات ، ولهذا قيل عن عالمه انه عالم شمي ، والأسد والنمر والحيوانات المفترسة تعتمد على مخالبها وأنيابها لتدافع عن نفسها .

ويكاد الطفل يشبه الحيوانات في السنوات الأولى من حياته ، فهو يعتمد على اللمس في الأشهر الأولى .

ذلك أن الحواس هي الأداة الوحيدة التي تربط الكائن الحي بالبيئة ، ولكن كلما تقدم الانسان في السن وازدادت تجربته ونمت ملكاته النفسية ازداد اعتماده على عقله .

أما المعرفة فتتقدم لها الحواس معطيات أولى (أو مادة خام) وهذه المعطيات هي التي يفسرها العقل ويحولها الى معرفة . لنلاحظ مثلا الصوت ، ان الطفل يستخدم

السمع للتمييز بين صوت أمه واصوات أهله من جهة وأصوات الغرباء من جهة ثانية وكذلك الحيوان يستخدم السمع ليميز صوت الكائنات التي عليه تجنبها من الأصوات التي عليه أن يقبل عليها . أما الراشد فهو ، بالاضافة الى ما تقدم ، يدرس الاصوات ويعرفها معرفة تجريبية وعلمية .

٣ - الادراك : تحليله

أ - من الاحساس الى الادراك :

يظن المرء أول وهلة أن ما ينتقل اليه بالاحساس أو ما يعرفه بالادراك هو الشيء ذاته ، وهذا خطأ مصدره أننا ألفنا عالمنا فأصبح بالنسبة الينا طبيعيا وموضوعيا . ان الاحساس يقدم لنا مجموعة اشارات أو رموز نفسرها ونطلق عليها اسما ، فعندما أرى شكل الثمرة ولونها أقول: هذه الفاكهة مشمش بلدي او حموي ، وهذه التفاحة من نوع (ستاركن) وأرى من بعيد شخصاً أتعرف اليه أحيانا في حركة من حركاته فأقول هذا الشخص لا يمكن أن يكون الا صديقي فلانا لانه وحده يقوم بهذه الحركة . وأعرف أحيانا شخصا من لهجة صوته فأسميه دون أن أراه وأهرع لملاقاته أو أعرض عنه ، فاللون والشكل والحركة والصوت والرائحة الخ مجرد اشارات أو علامات تصل الى المراكز الدماغية بواسطة الحواس ، وعقلنا بالاشتراك مع ذاكرتنا وخيالنا هو الذي يعرفها إذ يفسرها ، فالاعمى يعرف الاشياء بمجرد لمسها .

الاحساس يسبق الادراك منطقيا ، أي يجب أن يكون قبله ما دمت أحس ثم أفسر أو احكم ، ولكن في الواقع الادراك يسبق الاحساس أو بتعبير آخر لا يوجد في عالمنا سوى ادراكات نحللها فنصل الى الاحساسات ، فأنا أقول عن الثوب انه جديد لانه ما يزال مرتبا نظيفا لونه زاه وملمسه ناعم ، أي أرى الثوب ثم أبرهن على جدته بمجموعة الاحاسيس التي يبعثها فيَّ .

فالادراك واقعي مشخص في حين الاحساس مجرد أو نتيجة لعملية تحليل الادراك فاللون الاحمر غير موجود بذاته وما هو موجود واقعيا هو هذا الشيء ذو اللون الاحمر . ان عالمي هو مجموعة أشياء أحللها الى ألوان وأصوات وروائح الخ . ولكن ألا يمكننا أن نحصل على الاحساس في التجربة المباشرة ؟ أو : هل الاحساس الخالص (الصرف) موجود ؟ ربما عند الحيوان والطفل . وكذلك الأحاسيس التي

ـنفـدها تحت اسم حشوية قد تكون احساسات خالصة ولكنها مرفقة بانفعالات ، عندما يشعر المرء بضيق في نفسه أو بتعب غامض في أعضائه الداخلية يصل لحد ما ى الاحساس المحض ، ولكن هذه الحالات نادرة ولا يمكننا أن نعرف ما يدور في شعور الحيوان أو في نفسية الطفل ٠

ب ــ الادراك عملية كلية : مدرسة الصيغ (الغشتلت) ٠

ليس الادراك بالدرجة الاولى معرفة للأشياء الخارجية أو للعالم الخارجي ، بل هو موقف عام نقفه من الاشياء ، أو بتعبير آخر استجابة كلية للبيئة ٠ فالأشياء تفرض علينا سلوكا معينا تابعا للظرف الذي نحن فيه ٠ ففي الشتاء على الانسان أن يرتدي الملابس الصوفية الثقيلة كي يتقي البرد ، وفي الصيف عليه أن يرتدي الملابس الخفيفة ٠ ونقول عن هذا الموقف انه عام لأنه يشمل ، لا هذا الشيء أو ذاك ، بل مجموعة الاشياء ، فالاحساس ينبه الانسان الى أن الجو بارد أو حـار ، وعلى الانسان أن يتبنى السلوك الملائم لمجموع الظروف ٠ وتقول أيضا عن الادراك انه استجابة كلية لانه بمثابة جواب على ما تفرضه علينا الاشياء من سلوك ٠ فالطالب اذا ما صادف أستاذه يتخذ منه موقفا غير الموقف الذي يتخذه حيال رفيقه ٠ وعندما يسترخي الانسان على مقعده كي يرتاح يكون موقفه مختلفا عما هو عليه عندما يجلس على كرسيه كي يكتب ٠ ان سلوكنا هو مجموعة ردود فعل تتبدل بتبدل الظروف والمواقف ، وردود الفعل هذه كلية ٠

ولكن عندما نتأمل مواقفنا هذه ــ كي نفهمها ويكون سلوكنا منها أكثر تلاؤما ــ فنحن نحللها ٠ فعندما أخرج من بيتي كي أزور صديقا يسكن حيا آخر من أحياء المدينة أتصور هذا الحي بصورة اجمالية ثم أحاول أن استوضح هذه لأعرف الشوارع والطرق التي يجب علي أن اجتازها كي أصل الى بيت صديقي ، وهكذا أبدأ بنظرة كلية ثم انتقل بالتحليل من الكل الى الاجزاء التي يتألف منها هذا الكل٠

وعندما أزور مدينة أجهلها فانني ألقي عليها نظرة كلية أي أنظر اليها بمجموعها ؛ ثم أتجول فيها فأحاول أن أميز بين هذا الشارع وذاك ، وبين هذه الساحة وتلك ؛ وهكذا أكون لنفسي نقاط ارتكاز تساعدني على تعرّف المدينة فكأني أحللها كما أحلل نصا أقرأه ، وبعد التحليل يأتي التأليف او التركيب فأنا أنظر الى المدينة نظرة كلية تمكنني من أن أربط الأشياء بالمجموع ، وما أزال أنتقل من نظرةاجمالية

الى نظرة تحليلية ومن نظرة تحليلية الى نظرة اجمالية وهكذا أنتقل من الكل الى الجزء ومن الجزء الى الكل حتى أكون لنفسي صورة واضحة عن المدينة .

هذا الموقف هو موقفي وموقف كل انسان من الأشياء ، تحليل فتأليف وتأليف صورة واضحة عن المدينة .

والنظرة الكلية سابقة على التحليل والتجزيء ، وهذا ما أوضحته **مدرسة الصيغ (غشتلت)** التي نشأت في أواخر القرن التاسع عشر والتي ما يزال لها أنصار حتى أيامنا . كان علماء النفس في السابق يعتقدون أن الادراك مجموعة عمليات جزئية أو مجموعة احساسات يؤلف بينها العقل فيجعل منها كـلا فردت مدرسة الصيغ بقولها : ليست العناصر الحسية هي التي تعيّن طبيعة الكل المُدرك وانما هذا الكل المدرك هو الذي يعطي العناصر الحسية خصائصها ومميزاتها ، وبتعبير آخر فان الاحساسات الجزئية تتبدل تبعاً للادراك الكلي ، فاللون الاصفر على التفاحة غير اللون الاصفر على الليمونة وغيره على الكتاب ، وما يبـدو لنا في الادراك هو مجموعات بُنيوية أي كلٌ ذو بنية معينة . فعندما أدخل الى غرفتي كي آخذ من مكتبتي كتابا لأطالعه ، أفتح النافذة فيدخل نور الشمس وتبدو لي الغرفة والمكتبة بشكل أو بنية تختلف عما قد تكون عليه في الشتاء عندما يكون النور باهتا ، فبنية المكتبة مثلا هو ترتيبها الكلي الذي يتبدل تبعا للنور والظلمة والاحاسيس أو موقفي منهـا .

في هذه البنية الكلية التي تطلق عليها مدرسة الصيغ اسم القاع أو الأرضية يبدو لي الكتاب الذي أفتش عنه في شكله وألوانه .

وتتبدل البنى مع تبدل الظرف الخارجي وتبدل موقفي منها ، فموقف الطالب من مكتبته قبل الامتحان غير موقفه منها بعده ، وموقفه منها في الليل غير موقفه منها في النهار ، وموقفه منها وهو متعب غير موقفه منها وهو مرتاح يتأهب للمطالعة .

ج ـ العوامل التي تسهم في تكوين الادراك :

تسهم في تكوين الادراك عوامل أربعة هي :

أولاً ـ العامل الحيوي :

قلنا ان وظيفة الادراك الاساسية هي التلاؤم مع البيئة ، ولهذا فالادراك يتبدل ويتطور ويتكامل بتأثير الامور التالية :

١ ـ **البيئة الخارجية :** وما تفرضه علينا من سلوك ، فعالم سكان الجبل غير عالم سكان السهل أو الساحل ، وعالم ابن الريف غير عالم ابن المدينة ، وعالم سكان القطب الشمالي غير عالم سكان خط الاستواء أو المناطق المعتدلة .

٢ ـ **الحواس وتربيتها :** وهذا تابع للحرفة ، فأذن الموسيقي أدق سمعاً من أذن الانسان غير الموسيقي ، وعين الفنان أدق نظرة الى الالوان والاشكال من نظرة الانسان العادي ، والشاعر يتذوق الكلمات على غير ما يتذوقها الذي يكتب نثراً .

٣ ـ **الظرف الراهن :** ان الظرف الذي نجتازه يلون احساساتنا وادراكاتنا بلون خاص ، فمشاعر الطالب أثناء الامتحان غيرها بعد النجاح ، وقد لاحظنا كلنا أن عالمنا تبدل رأساً على عقب عندما بدأ العدوان الصهيوني الاستعماري الاخير على البلاد العربية ، فقد لوّن هذا العدوان عالمنا بانفعالات لم تكن فيه من قبل .

٤ ـ **المكتسبات والتجارب السابقة :** ان كل انسان ابن ماضيه ، فنظرة الطالب الى الاشياء تختلف عن نظرة الفلاح أو عن نظرة العامل وهكذا .

وبكلمة مختصرة ان ادراك كل منا تابع لمشاغله واهتماماته .

ثانياً ـ العامل الاجتماعي :

تدخل الى غرفة من غرف مدرستك فتعرف من النظرة الاولى أي صف هي ، وقد تعرف الدرس الذي ألقي فيها من الرموز والكلمات المسجلة على السبورة . واذا دخل عليها انسان من المدينة لا يعرف منها الا انها غرفة مدرسة . أما الاعرابي فلا يميز بينها وبين بيت السكن . مما يدل على ان نظرة الانسان الى الاشياء تختلف باختلاف وضعه الاجتماعي فنظرة الطالب الى المنضدة تختلف باختلاف وضعه الاجتماعي فنظرة الطالب الى المنضدة تختلف عن نظرة النجار ، فهذا يقدر قيمتها من حيث خشبها وصناعتها ، أما الطالب فيقدر قيمتها بالنسبة الى ما تتسع له من كتب ودفاتر وأقلام وهو يريد أن يعرف أكانت مريحة عند العمل أم لا . وتختلف نظرة الانسان الذي يعيش في مجتمع صناعي تقني الى الاشياء عن نظرة انسان ما يزال يعيش في مجتمع خرافي سحري تسكنه الارواح وأدواته الرقى والتعاويذ .

ونلاحظ أن الاولاد في أيامنا (الصبيان بشكل خاص) يفضلون اللعب الميكانيكية على غيرها من اللعب ، والاكثرية الساحقة منهم تفضل اللعب بالسيارة

المصفحة والصاروخ والرشيش لان وجود اسرائيل في قلب العالم العربي يدفع الناس الى الاهتمام بالاسلحة ، على حين كان اهتمام الاولاد في السابق موجها نحو الحصان والسيف والرمح •

ان الانسان ابن بيئته الاجتماعية كما قيل ، فالولد عندما تعلمه أمه مفردات لغته وعبارتها تضيف الى هذه المفردات قيم المجتمع ومعانيه وانفعالاته • وهكذا يكتسب الانسان بالتدريج عادات أجداده وتقاليدهم فيصبح صورة عنهم •

ان المجتمع بعد من أبعاد سلوكنا لا بل هو بعد من أبعاد شخصيتنا •

ثالثاً ـ العامل الفردي والشخصي :

وكما أن الادراك يتأثر بالوضع الاجتماعي للانسان فهو يتأثر أيضاً بوضعه الفردي فلكل منا اهتماماته وتجاربه في الحياة وآراؤه وعاداته وفلسفته في الحياة فالنفعي يرى الاشياء على غير ما يراها المثالي ، لا بل ان نظرة الفرد الواحد الى الاشياء تتغير بتغير اهتماماته وانفعالاته الآتية • ففي ظرف ما أحب هذا الكتاب الذي أكرهه في الظرف الآخر ، وقد تستهويني أنشودة أبغضها بعد يوم •

رابعاً ـ العامل العقلي :

تشترك في تكوين الادراك عدة عوامل عقلية نذكر منها بشكل خاص الذاكرة والخيال والانتباه وقوة الحكم التي هي العقل نفسه •

يقول برجسون : ان ادراك معنى أن أتذكر • فاذا رأيت شخصاً من بعيد وعرفته من حركات يديه فلأني أتذكر هذه الحركات به وحده تميز من غيره • فصورة الانسان الذي يسير على بعد خمسين مترا مني تستدعي بالخيال صورته عندما رأيته بجانبي وهو يحرك رأسه على شكل معين أو يتكلم بنبرة خاصة •

والادراك الحقيقي يقتضي بالدرجة الاولى الانتباه فالانسان الذاهل تمر الاشياء أمامه دون أن يميز أحدها من الآخر • واذا رأيت شخصا ما وقلت هذا الوجه أعرفه ولكنني لا أذكر من هو ولا اسمه فلا يمكنني أن أعين هويته بدقة الا اذا انتبهت انتباها كليا ومركزا الى صورته الحاضرة أمامي ومجموعة الصور الماضية التي بقيت في ذهني عندما رأيته في السابق •

ولكن الادراك الحقيقي ـ أي التمييز الدقيق بين هذا الشيء أو ذاك وهذا

ـوجه أو ذاك ـ هو عملية عقلية أو حكم عقلي بالدرجة الاولى . فعندما أقول هذا الشخص الذي أراه الآن هو فلان بن فلان الذي كان زميلي في المدرسة منذ خمس سنوات ، أحكم بحكم عقلي أن وجهه مطابق لمجموعة ذكرياتي عنه في الماضي . قيل ان الادراك تأليف (تركيب) فتحليل فتأليف (تركيب) . وهذا صحيح ، فعندما أحكم بأن هذا الشخص هو فلان الفلاني ، أوازن بين عدة أمور (طابع صورته ـ مفرداته ـ حركات جسمه الخ ..) ـ كل منها على حدة ـ وما أعرفه عن هـذا الشخص في الماضي . فأنا حللت ادراكي الكلي للشخص الى مجموعة مـدركات جزئية ثم ألفت بين هذه المدركات الجزئية في ادراك كلي .. وفي كل موازنة جزئية أقوم بحكم عقلي (نبرة صوته الآن تشبه نبرة صوته في الماضي .. الخ) .

فالعوامل التي ذكرنا سابقا (العامل الحيوي ، العامل الاجتماعي ، العامل الفردي) خاضعة للعامل العقلي الذي يوجهها ويكملها .

الادراك اذاً عملية عقلية فهو سلوك عال أرقى بكثير من السلوك الانعكاسي والسلوك الغريزي والسلوك الانفعالي وبقية أنواع السلوك التي ندرسها في كتاب العمل . لأن العقـل هو أعلى ملكة فينا والسلوك الذي ينتج عنه أعلى أنـواع السلوك .

٤ ـ امتداد الشيء ـ الادراك والبعد الثالث

أ ـ التمييز بين الذات والموضوع ، أو بين الأنا والأشياء :

قلنا ان الادراك نتيجة لتربية طويلة تشترك فيها التجربة مع العقل والمجتمع مع الفرد . وسنلقي الآن نظرة سريعة على أولى مراحل الادراك ، أي على سن الطفولة اذ يتعلم الصغير كيف يميز الاشياء وبين ذاته والاشياء .

يقوم الادراك في سن الرشد على بديهية قلمّا ننتبه اليها ، وهي أن الانسان المدرك متميز من الاشياء التي يدرك . فأنا غير المنضدة والقلم والدفتر الذي استعمل . ولكن هذا التمييز البديهي لم يكن دوما كذلك بـل هو مكتسب . فالحيوان لا يدركه ، والطفل على ما يرى علماء النفس ، لا يفرق بين شخصيته والاشياء التي تحيط به بل هو ـ على الاقل في السنة الاولى من حياته وربما بعدها ـ في حالة اندماج غريزية وعفوية مع الاشياء . وهذا ما يسميه « جان بياجة » : « انصهـار

الذات في الموضوع » • فكأن علمه مجموعة لوحات ادراكية تتابع متحدة معه كما تتابع الصور في الحلم ، ولهذا ينسب الطفل الى الاشياء غايات ومقاصد فهي مثله حية تشتهي وترغب وتعرض عما لا تريد • والطفل أيضا لا يميز بين الحلم والواقع • ان سلوك الطفل هو مجموعة منعكسات أو مجموعـة ردود أفعال على الاشياء الخارجية التي يتأثر بها كثدي أمه ولعبته وسريره الخ ••

في هذا المغمض تتميز الاشياء بالنسبة الى الطفل تدريجا بتأثير العادة والتربية ونمو الملكات العقلية • وربما كان أول شيء يميزه الطفل من ذاته هو وأمه واخوته ثم يتعرف تدريجاً الى الاشياء التي يحتاجها باستمرار • فالشيء الذي يستعمله مرارا وتكرارا فيمد يده اليه باستمرار يتخذ صفة الثبات ، مثلا : الماء والغذاء لانهما من مستلزمات حياته وكذلك الالعاب • وأولى مقاييس الموضوعية (التفريق بين الذات والشيء) عند الطفل على ما يرى « بياجة » هي :

١ ــ امكان تكرار التجربة : فما دام يستعمل المصّاصة مرارا فهو يدرك انها مستقلة عنه •

٢ ــ امكان التوقع : وما دام اذا فتح الدرج يرى اللعبة التي وضعتها أمه فيه فاللعبة مستقلة عنه •

٣ ــ امكان استمرار الاشياء : فالاشيـاء التي يراها محيطة دومـا كالسرير والكرسي تتخذ بالنسبة اليه صفة الموضوعية •

والواقع أن أم الطفل هي التي تعلمه كيف يفرق بين ذاته والاشياء عندما تمرنه على اللغة اذ يقول : « هذه قطعة خبز وذاك حليب الخ • » • ولكن الطفل لا يميز بين ذاته والأشياء تمييزا تاما الا عندما تتكامل ملكاته العقلية فيصبح قادرا على الانتباه والتذكر ويحكم هو بنفسه على الاشياء اذ يسميها ويستعملها •

ب ــ تكون فكرة الشيء :

يتتج مما تقدم أن ادراك الشيء محصلة للتجربة والتربية ولعدة عمليات نفسية وأنه تنيجة لعدة عوامل ذكرناها سابقا (العامل الحيوي ــ العامل الفردي ــ العـامل الاجتماعي ــ العامل العقلي) أو انه خلاصة لنمو طويل • ولهذا فادراك الاشياء عملية تبدأ مع حياتنا وتنتهي بانتهائها وما دام الانسان حيا فهو يجرب ويفكر ويتعلم

ـــيز بين الأشياء ، ان تعرفنا الى عالمنا لا ينتهي فكل منا يكتشف دوما أشياء حـيـدة في مدينته وفي مجتمعه ، فالرحلات والاسفار ودراسة الطبيعة والتاريخ ..كل تجربة أياً كانت وكل دراسة أيا كانت تكشف لنا في هذا العالم أشياء لم نكن نتصور انها موجودة •

وخلاصة القول ان الادراك هو هذا الاتصال المستمر بيننا وبين العالم الذي نعيش فيه • وسنرى أن العلم الوضعي يكشف لنا في هذا العالم عن اشياء لم يكن بامكاننا أن نتخيلها قبلا •

ج ـ من الامتداد الى البعد الثالث :

ومما يبرهن لنا أيضاً على أنالادراك نتيجة لتربية طويلة هو ادراك البعدالثالث• للاشياء أبعاد ثلاثة : الطول والعرض والعمق • وقد لاحظوا منذ القرن التاسع عشر أن الأعمى منذ الولادة ، اذا فتحت عيناه يرى في الاسابيع الاولى وكأن الأشياء البعيدة لاصقة بعينيه ، أو هو لا يميز بين الاشياء البعيدة عنه والقريبة منه ، فخلصوا من ذلك الى أنه لا يدرك المسافة أو البعد الثالث ، والحقيقة أنه يدركه ولكن باللمس والحركة لا بالبصر ، فهو بحاجة الى ممارسة حتى يميز بين الاشياء التي هي بمتناول يده ، والاشياء التي عليه أن يقطع مسافة ما ليحصل عليها •

والولد أيضاً يتعلم التمييز بين الوراء والأمام والتحت والفوق ، عندما يتعلم كيف يدير رأسه باتجاه الصوت الذي يسمع •

أما الطفل فلا يميز في السنة الاولى من حياته بين القريب والبعيد ، فهو مثلا يمد يده ليتناول القمر اذ يراه كما يمدها ليأخذ الكرة •

ان الاشياء تبدو لحواسنا أول ما تبدو ممتدة ، أي ذات طول وعـرض ، أما عمقها أو المسافة التي بيننا وبينها فبحاجة الى المزيد من التجربة كي نتمكن من معرفتها • ويعتمد ادراك البعد الثالث أكثر ما يعتمد على عاملين ، البصر والحركة •

١ ـ **دور البصر :** عندما نحاول أن نرى الأشياء البعيدة فنحـن نثبت بصرنا ونحدق فيها فتتناقص زاوية الابصار كلما ابتعد الشيء المرئي ، وبذلك نتمكن من رؤيته ، ولكن لكي نتمكن من ادراك المسافة بيننا وبينه نحاول أن نجد في هـذه المسافة نقاط استناد • فالفاصل بيني وبينصديقي في الطريق هو السيارات والمحلات التجارية مثلا ، فأنا أستند اليها حتى أقدر الفاصل بيني وبينه وأمضي الى لقائه •

٢ ــ دور الحركة : ان الحركة تتطلب منا جهدا معينا ، فانتقالي من أول الغرفة الى آخرها يستلزم جهدا على حين يستلزم انتقالي من بيتي الى دائرة عملي جهدا أكبر ، والطفل الذي يمد يده ليأخذ اللعبة الموضوعة على المنضدة يعرف ضمنا أن هذه العملية لا تكلفه من الجهد ما يكلفه انتقاله من غرفته الى المطبخ أو ما يكلفه من الجهد انتقاله من بيته الى بيت الجيران •

ولكن ما تقدمه لنا العين والحركة وبقية الحواس من معطيات لتقدير العمق والمسافة يشبه ما تقدمه هذه الحواس من معطيات للادراك ، فما هو الا مادة أولى على العقل أن يفسرها وبتعبير آخر فان معرفة البعد الثالث عملية عقلية تحتاج الى تربية وتختلف من شخص الى آخر تبعا للاهتمامات ، فالذي يقطع المسافات سيرا على الاقدام كالاعرابي يستطيع أن يقدر المسافة بدقة يعجز عنها ابن المدينة الذي يستخدم السيارة •

د ــ اخطاء الادراك وأمراضه :

يتبين مما تقدم :

١ ــ أن الادراك ليس صورة فوتوغرافية للأشياء بل هو نتيجة للتلاؤم معها •

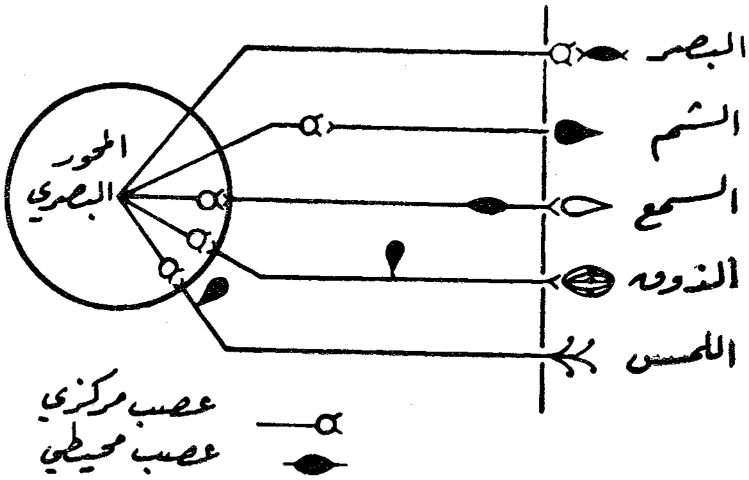
٢ ــ أن الادراك عملية عالية لأنها تستلزم العقل •

٣ ــ أن الادراك عملية معقدة لانها نتيجة لخبرة طويلة ولعدة عوامل ذكرناها سابقا •

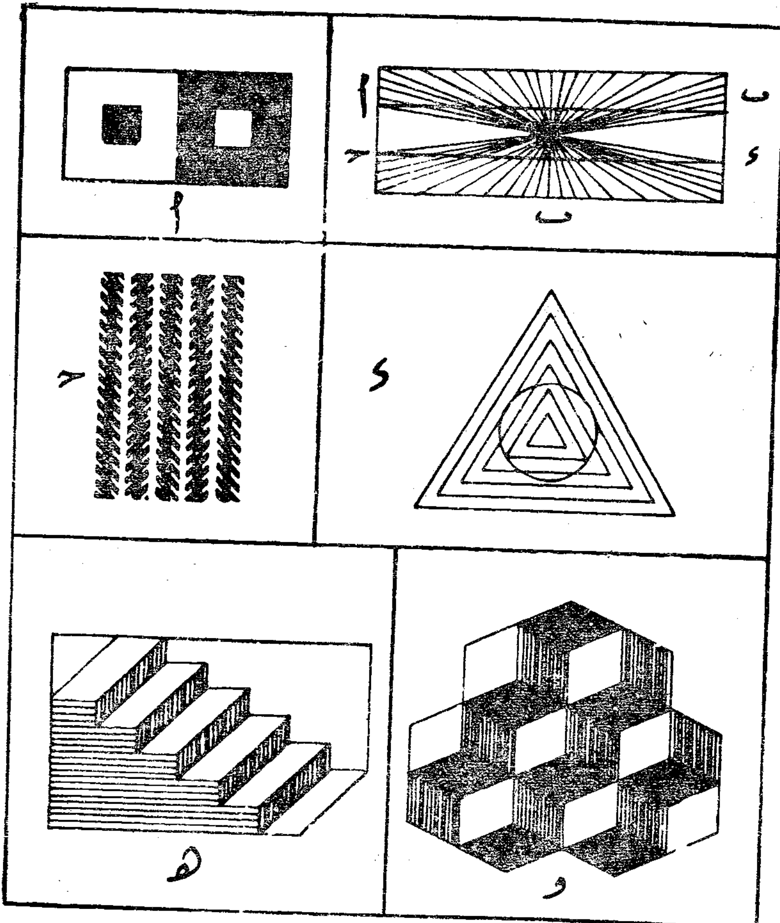
ولهذا فعندما يتراخى الانتباه ، وتضعف الشخصية ، يعجز الانسان عن الادراك ويقع في الخطأ ، وعندما يصاب الانسان بمرض عصبي وعقــلي يتشوه الادراك ويصبح التلاؤم مع الاشياء صعبا وأحيانا مستحيلا » •

وبهذا المعنى يقول ما لبرانش : (ليست حواسنا هي التي تخدعنا وانما ارادتنا بأحكامها السريعة) فالخطأ لتفسير سريع أو لتفسير مغلوط ، والمرض نتيجة لعطل أساسي يطرأ على القوى النفسية العالية كالعقل •

١ ــ أخطاء الادراك : ونذكــر منها على سبيل المثال نوعين • أولا الخــداع البصري كالعصا يغمس نصفها في الماء فتبدو لنا منكسرة • واذا وضعنا شيئين وزنا في يدنا نظن أن الاصغر حجما هو الأخف • ومنها أيضا خداع البروز وخــداع الخطوط المتوازية كما في الشكلين المرسومين في الصفحة التالية • ومن الامثلة



(الشكل ١)



(الشكل ٢)

المألوفة أيضا على الخداع البصري المثال التالي : أرى شخصا آتيا من بعيد وأظن أنه صديقي فأهرع لأسلم عليه وما إن يرفع رأسه ليرد تحيتي حتى ألاحظ أني لا أعرفه ، ومن الواضح هنا أن الخطأ في التفسير • مثال آخر نرى الشمس والقمر عندما يكونان في الأفق أكبر مما هما عليه في قرص السماء •

٢ ـ أمراض الادراك : وتحصل عندما يصاب الانسان بمرض عصبي أو عقلي: ومنها بشكل خاص •

أ ـ أمراض المعرفة : (Agnosie) وتصيب الحساسية بشكل خاص • فعندما تصاب المراكز الدماغية بخلل ما يبقى الاحساس موجودا ولكن تتعطل فينا قوة التمييز بين الأحاسيس فلا يميز المريض بين المربع والمثلث مثلا مع أنه يعرف الاشكال، وأحيانا لا يميز بين الزاهي والقاتم أو بين ألوان قوس قزح مع أنه يعرف اللون • وتصيب السمع أيضا فالمريض يعرف أنهم يتحدثون اليه ولكنه لا يفهم مايقولون •

ب ـ مرض الوهن : (Hallucination) وهو مرض شديد الانتشار وفيه يرى المريض أشكالا وألوانا ويسمع اصواتا لا بل يسمع أحيانا كلاما متماسكا وذلك كله غير موجود •

ج ـ الوهن النفسي : وفيه يضيع المريض حس الواقع فيرى مثلا الطبيب وكأنه عملاق • ويذكر بيير جانه ـ الذي حلل هذا المرض بدقة ـ العبارة التالية على لسان احد مرضاه : (لا يمكنني أن أتصور أنكم ايها الناس المحيطون بي موجودون وانكم تعيشون حقا) ، أيضا (لا أعتقد أني أعيش على الارض لأني لا أرى شيئا موجودا آخر الخ) ، وفي هذا المرض تكون الحواس سليمة وانما تتعطل قوة العقل •

خلاصة

١ ـ الادراك والعوامل التي تؤثر في انشائه :

الادراك هو العملية النفسية التي يتم بواسطتها الاتصال بيننا وبين العالم الخارجي ومعرفة الاشياء التي في هذا العالم وهو تابع لاهتمامنا ولقدرتنا العقلية ويتكون تحت تأثير أربعة عوامل هي : العامل الحيوي أي التلاؤم مع المحيط ، والعامل الاجتماعي ، أي التربية التي تتلقاها من مجتمعنا خصوصا عندما نتعلم لغته ،

ـلعس الفردي ، أي مشاعرنا واهتماماتنا وحالاتنا النفسية ، والعامل العقلي ، أي الـ كرة والخيال والانتباه وقوة الحكم •

٢ ـ الاحساس :

وهو العملية الجسمية النفسية التي تنقل تنبيهات يحدثها فينا العالم الخارجي في أجهزة الاحساس الى الاعصاب ، فالمراكز العصبية ، فالنفس • ولا يتأثر الجسم ـمنبهات الخارجية الا اذا بلغ التأثير حـدا من الشدة يطـلق عليه اسم العتبة • والاحساسات كثيرة منها : الحواس الخمس ، والحساسية الحشوية • والاحساس ـحركة والتوازن •

٣ ـ الإدراك :

عملية كلية قوامها التركيب والتحليل ، فنحن ندرك العالم الخارجي على شكل كل مغمض نحلله الى الاجزاء التي يتألف منها فيزداد وضوحا ونعيد تأليفه في كل أوضح من الكل السابق ، ونكرر التحليل والتركيب الى مالا نهاية له

٤ ـ مفهوم الشيء :

يقوم ادراك الشيء عند الطفل على التمييز بين الذات والموضوع فتتضح الاشياء تدريجاً للانسان كل منها في هويته الخاصة ومميزاته الذاتية • وتدريجا يتلقى الانسان بالتجربة كيف يميز البعد الثالث ، أي البروز والمسافة التي تفصل بينـه وبين الشيء •

٥ ـ اخطاء الادراك وأمراضه :

عندما تضعف قوانا العقلية أو عندما يضعف انتباهنا لا نستطيع تمييز الاشياء بعضها من بعض ، فنقع في اخطاء كثيرة ، وعندما يتعطل جهازنا العصبي ، تقـع في أمراض تعطل فينا ملكة الادراك ، ومن هذه الامراض بشكل خاص : الوهم والوهن النفسي •

تمــارين

١ ـ لاحظ أحاسيسك وما يرافقها من حالات انفعالية ، وأشر الى الاحساس

الذي يبعث فيك انفعالا قويا ، واستعن على هذا الغرض بالموسيقا أو برؤية المناظر الجميلة ، بقراءة رواية ممتعة أو بالتحدث الى رفاقك في نزهة جميلة أو بغير ذلك •

٢ ـــ لاحظ وليدا في بيتك أو عند جيرانك وحاول أن تحدد بما أمكن من الدقة السن التي يستطيع فيها ادراك الضوء وتعيين موقعه •

٣ ـــ عندما تكون في دكان الحلاق تنتظر دورك ، لاحظ الزبن في أحاديثهم ونكاتهم • وحاول أن تتعرف بواسطتها أوضاعهم الاجتماعية ، أي بشكل خاص الى حرفة كل منهم •

٤ ـــ يوم الجمعة تتأخر في سريرك • أغمض عينيك مدة من الزمن وحاول أن تعرف الساعة من أصوات المارين • ويمكنك أن تعرف بهذه الواسطة أيضا أكان النهار صاحيا أم ممطرا • استعن على هذا الغرض بالنص التالي ننقله بشيء من التصرف عن « مرسيل بيروست » : « منذ الصباح الباكر ورأسي ما يزال متوجها نحو الحائط أقدر الوقت ، فالاصوات التي تأتيني من الشارع تدلني عليه ، لانها باكرا جدا تكون منفردة وكأنها سهام مرشوقة في الفضاء • وبعدئذ ما يزال صوت البائع واضحا ولكن ترتفع معه أصوات السيارات وترافقه أصوات المارين ، ثم تمتزج الاصوات بعضها ببعض في كل غير منسجم فأعرف ان الساعة قد أدركت العاشرة » •

٥ ـــ عندما تمر بالشارع ، حاول أن تسجل قبل كل تفكير ، الاشياء التي يقف عندها نظرك اذ منها تتبين اهتمامك •

٦ ـــ بين بالاستناد الى حادثة قومية هامة (الجلاء أو العدوان الاسرائيلي) كيف أن الوضع الاجتماعي العام يبدل ادراكاتنا •

أسئلة

١ ـــ بين بتحليل حادثة معينة أن الادراك عملي ونظري بآن واحد •

٢ ـــ وازن بين الاحساس والادراك •

٣ ـــ يقول « برجسون » « الادراك تذكر » • حلل هذا القول وناقشه •

نص أول

اقرأ هذا النص ولاحظ كيف يبين ديكارت أن الادراك من عمل العقل لا من عمل الاحساس •

اني مهما أعجب فلن أجاوز حد العجب ألاحظ مافي ذهني من وهن وميل يجعله عرضة للخطأ عن غير وعي • لاني وان كنت أجيل ذلك كله في ذهني ، دون أن أتكلم ، الا أن الكلام يحول دون تقدمي ، وألفاظ اللغة الجارية تكاد تخدعني ، فنحن نقول : اننا « نرى » الشمعة بعينها اذا كانت أمامنا ، ولا نقول اننا «نحكم» بأنها هي بعينها ، لان لها لون الشمعة وشكلها • ومن هذا أكاد استنتج أننا نعرف الشمعة بابصار العينين لا بلمحة الذهن وحدها • لولا أني أنظر من النافذة فأشاهد بالمصادفة رجالا يسيرون في الشارع ، فلا يفوتني أن أقول عند رؤيتهم اني أرى رجالا بعينهم ، كما اني أرى شمعة بعينها ، مع أني لا أرى من النافذة غير قبعات ومعاطف قد تكون غطاء لآلات صناعية تحركها لوالب لكنني أحكم بأنها أناس : واذا فأنا أدرك بمحض ما في ذهني من قوة الحكم ما كنت أحسب أني أراه بعيني •

ويقول أيضا :

واذاً فلا بد من التسليم بأنه ليس في مقدوري أن أدرك بالخيال ما هية هذه القطعة من الشمع ، وانما الذي يدركها ذهني وحده •

(ديكارت ــ التأملات في الفلسفة الاولى ، ترجمة الدكتور عثمان أمــين ــ الصفحتان ٨٧ ــ ٧٩) •

نص ثــان

في هذا النص يوازن أرسطو بين الاحساس والتفكير ليبين أن الادراك من عمل الفكر :

هناك صفتان أساسيتان تميزان ما تعرّف به النفس : الاولى الحركة الموضعية ، والثانية التفكير والحكم والاحساس • ويذهب بعض الفلاسفة الى أن التفكير والعقل نوع من الاحساس (لأن النفس في كلا الحالين تميِّز وتعرف شيئاً موجوداً) وهذا خطأ ••• اذ من البين أن الاحساس والعقل ليسا أمرا واحدا ، ذلك أن أحدهما يشترك فيه جميع الحيوانات ، أما التفكير (الذي يشمل المستقيم وغير المستقيم ؛ من حيث ان التفكير المستقيم عقل وعلم وظن صادق وغير المستقيم أضدادها) فخاص بالانسان • لأن الاحساس صادق دائما ، ويوجد عند جميع الحيوانات ، على حين أن التفكير قد يكون خطأ كما قد يكون صوابا ولا يوجد الا عند الكائنات التي لها عقل •

(أرسطو — كتاب النفس — ترجمة الاهواني والقنواتي ، بشيء من التصرف ، الصفحتان ١٠٢ و ١٠٣) •

ما المقياس الذي يستخدمه أرسطو للتمييز بين الاحساس والعقل ؟



يدرك ما يقرأ أو يجيد في كتابة موضوعه • وعنـدما يشرد ذهنه يتيه في عالم تصوراته وأحلامه فيضطر الى اعادة النظر في درسه أكثر من مرة •

٢ ـ انواع الانتباه :

يمكن تصنيف الانتباه تبعا لموضوعه أي الشيء الذي ننتبه اليه، فهو ثلاثة أنواع

أ ـ الانتباه الحسي : وهو موجه نحو الاشياء الخارجية أو المدركات كأن أنظر والاحظ كي أرى ، أو أصغي كي أسمع ، او أحس الاشياء كي أتمكن من معرفتها بواسطة اللمس • فعندما توجه حواسك كلها نحو منظر ريفي جميل كي تستمتع بجماله وتتنشق أريج عطر الازهار وتفتح صدرك للهواء الطلق يكون انتباهك حسيا•

ب ـ الانتباه النفسي : ويتوجه نحو حالاتنا الداخلية عندما نحاول مثلا معرفة ما يجول في داخلك من عواطف حب أو كراهية ، تعاطف أو تنابذ نحو شخص ما • وتجد أمثلة عن هذا الانتباه في الروايات التي تصف الحالات الداخلية للانسان •

ج ـ الانتباه العقلي : ويتوجه نحو الافكار المجردة وعلاقات بعضها ببعض • فعندما تحل مسألة رياضية أو تكتب موضوعا فلسفيا يكون انتباهك عقليا •

ويصنف الانتباه أيضا تبعا للعوامل التي تؤثر في تكوينه وأنواعه :

أ ـ الانتباه القسري : كأن تكون ذاهلا وتسمع صوت الرعد أو ترى نور البرق فتنتبه ، والواقع أن هذه الحالات ليست انتباها حقيقيا وان كانت تحشر معه لان الانتباه تركيز نريده ونوجهه ، والقسر عكس الانتباه •

ب ـ الانتباه العفوي : وهو نتيجة للاهتمام فعندما تكون مارا في الشارع صباحا لا تنتبه الى الخضر والفواكه وبقية المأكولات الا اذا كنت جائعا • وتنتبه المرأة بشكل خاص في الشوارع العامة والكبيرة الى الازياء الجديدة والى كل ما يتعلق بزينتها •

ج ـ الانتباه كتوقع وترقب : ويحصل عنـدما ننتظر شيئا ما يثير اهتمامنا وعندئذ يصبح الحس مرهفا فيسجل مختلف الحركات والاحـداث والاشارات الخارجية • أنت مثلا في غرفتك يوم الجمعة بعد الظهر تنتظر رفاقك كي تقوم معهم برحلة في ضواحي المدينة ، فلا ترى الكتاب الذي كنت تدرس فيه ولا تسمع صوت أمك التي تدعوك للقيام بعمل ما ، بل توجه حواسك نحو الشارع لتسمع صوت رفيقك يناديك •

الفصل الثاني

الانتباه

١ ـ وصف الانتباه وتعريفه :

يتذكر الانسان ويتصور ويريد ويرفض ، يتقبل أو يتعرض ، يرى الأشياء خارجيا ويدركها فيعدها ويتأملها الخ . وفي كل هذه الحالات النفسية يعرف بحدس مباشر ذاته في علاقاتها مع الاشياء الخارجية ، كما يعرف انفعالاته وكل ما يطرأ عليه من تغيرات . هذا الحدس المباشر نطلق عليه اسم الشعور[١] وقد شبه الشعور بالنور . فعندما يطفىء الانسان الضوء في الليل لا يرى الاشياء أو قد يراها وقد انطمست معالمها فلا يميز الا بصعوبة الكرسي من المنضدة في غرفته . وهكذا الشعور ، فهو في النفس بمثابة النور في العالم الخارجي . ولكن الشعور نور داخلي أو لا مادي .

وللشعور درجات فقد يتراخى وعندئذ تتشتت المعرفة وتتوالى الصور والذكريات في فسحة النفس مغمضة باهتة ، قليلا ما يتميز بعضها من بعضها الآخر ، كما في حالات الذهول والشرود وأحلام اليقظة والحلم ذاته . ومن درجات تراخي الشعور ما قبل الشعور وما تحت الشعور وأخيرا اللاشعور بالمعنى العام والغامض لهذه الكلمة) أي انعدام الشعور .

وعندما يتركز الشعور لمعرفة شيء ما بدقة يصبح انتباها .

فالانتباه هو تركيز الشعور وتوجيهه .

ويعرف الطالب الانتباه من تجربته اليومية ، في الصف ، وفي الدرس ، وفي الامتحان ، اذ يحصر ذهنه كما يقال في اللغة الدارجة ، فيفهم ما يقول الاستاذ أو

(١) راجع في كتاب المعرفة فصل الشعور واللاشعور حيث تجد معلومات وافية عن هذا الموضوع .

د ــ الانتباه الارادي : وهو اعلى درجات الانتباه وأهمها • وهو الذي يجب أن نوجه عنايتنا لدراسته • وهو والانتباه العقلي شيء واحد • يحصل الانتباه الارادي عند الطالب عندما يستمع قبيل الامتحان الى درس لم يفهمه وحده ، فالتركيز هنا يجب أن يكون تاما لان كل حلقة من حلقات الدرس متممة للاخرى فاذا سقطت واحدة منها عجز الطالب عن الفهم •

٣ ــ طبيعة الانتباه :

تبدو لنا طبيعة الانتباه اذا ما فهمنا شروط تحققه وبعض خصائصه الاساسية • فلندرس هاتين الناحيتين •

أ ــ شروط تحقيق الانتباه : يستلزم الانتباه كي يتحقق نوعين من الشروط :

١ ــ تلاؤم عضلي ــ حركي • لا نقصد بكلمة تلاؤم هنا المعنى الذي أشرنا اليه للادراك ، أي الانسجام مع البيئة ، وانما ايجاد الاوضاع التي تمكن الانسان من أن ينتبه • فالانتباه يفترض سلوكا معينا وموقفا خاصا من الاشياء ، وبالتالي مجموعة شروط فيزيولوجية منها : الكف عن الحركات غير الملائمة فالصياد عندما يصوّب على الفريسة يجمد في مكانه ويحبس أنفاسه كيلا تشعر الفريسة بوجوده كما أنه يصغي كي يستمع الى حركتها عندما تمر • وعندما يفكر الانسان في موضوع ما يثبت رأسه بين يديه فتتقلص عضلات جبينه وينهال الدم على دماغه • وعندما ننظر الى شيء ما خارجي نوجه البصر نحوه ونحدق فيه الخ •

٢ ــ تلاؤم عقلي ــ ذهني • فعندما نحاول فهم فكرة ما نوقف بملء ارادتنا الذكريات والادراكات والصور الغريبة عن فكرتنا ، كما أننا نستحضر الذكريات والصور والادراكات وغيرها من الحالات النفسية المنسجمة مع هذه الفكرة •

وهذان الشرطان متلازمان لا يمكن التمييز بينهما الا عن طريق التحليل ، فالانسان ينتبه بكليته ، اذ يحشد بواسطة الارادة قواه النفسية والجسمية كي يفهم الموضوع الذي ينتبه اليه •

ب ــ خصائص الانتباه :

١ ــ الانتباه شرط أساسي من شروط الحصول على المعرفة • فاذا حفظ الطالب مثلا مقطوعة شعرية دون أن ينتبه الى مضمونها فهو يسجلها بذاكرته ويعيدها ببغاويا•

أما اذا فهم معانيها وصورها وما تتضمنه من تلونات دقيقة فهي تصبح جزءا من ثقافته ويستطيع بذلك الافادة منها • وما يصح في الذاكرة يصح في الادراك وفي بقية العمليات النفسية • ان الانسان الشارد الذهن لا يتذوق منظرا جميلا ولو كان أمامه مباشرة ولا يستطيع أن يستمتع بقطعة موسيقية تعزف بالقرب منه •

٢ ــ في السلوك الآلي والعفوي (العادة) ، في التداعي وفي غير ذلك من أنماط الحياة النفسية العادية ينساق الانسان مع بيئته أو مع الآليات المسجلة في جسمه وكأنه أداة طيعة في يدها • فراكب الدراجة لا يفكر بحركا تيديه ورجليه • وعندما يناقش الانسان وهو في حالة انفعال لا يستطيع ضبط حركاته ، بل تسيطر عليه الاهواء والغرائز وينساق مع العبارات التي يتلفظ بها وتسوقه الى حيث لا يريده • أما اذا انتبه فيتحكم بكلامه وينتقي من معلوماته ما يفحم به خصمه ، وبهذا يصبح سيد موقفه • ويستطيع الانتباه وحده أن يسعفنا في الظروف الحرجة •

٣ ــ الانتباه قوة تأليف (تركيب) تقوم على الحذف والاصطفاء • فعندما ينتبه الطالب الى دروسه يحذف من ساحة الشعور كل ما كان فيه في الفرصة من حركات وألعاب ويستعيد الدروس السابقة • والانتباه أيضا تحليل وتركيب فعندما يكتب الطالب مسابقة يستعيد معلوماته السابقة ويحللها الى عناصرها وينتقي منها ما هو ملائم للجواب ثم يركب العناصر التي انتقاها في كلٍّ جديد هو جوابه عن الموضوع وكلما أمعن في التحليل والتركيب اتضحت فكرته وحملت كتابته طابعا شخصيا •

وخلاصة القول ان الانتباه فعالية نفسية عالية ، ونقصد بكلمة (عالية) الفعالية التي تستلزم جهدا عقليا كبيرا وتوترا نفسيا كبيرا وتستند الى العقل والارادة ، والفعالية النفسية العالية ترتب أنواع السلوك الدنيا وتوجهها نحو هدف معين على الانسان أن يصل اليه •

٤ ــ وظيفة الانتباه :

للانتباه كما للادراك وظيفتان أساسيتان :

١ ــ **التلاؤم مع البيئة** : والواقع أن كل الوظائف النفسية أداة تلاؤم ولكنها يختلف بعضها عن بعض في درجة تحقيق هذا التلاؤم ، والانتباه يحقق أعلى هذه الدرجات لانه ينفذ الى أبعد حد يمكن أن ينفذ اليه الانسان في ادراك الواقع

والسيطرة عليه ، فبالانتباه يمكننا أن نحلل الظرف الذي نعيش نحن فيه وأن نستفيد منه الى أبعد حد ممكن •

٢ ـ **المعرفة** : ان المعرفة في أعلى درجاتها تقوم على ادراك العلائق التي تربط عناصر الواقع وعناصر الفكر بعضها ببعض ، اذ نميز بين هذه العناصر ونعرفها أجزاء وكلا • ولهذا قلنا عنه انه قوة تأليف (تركيب) • والتأليف هدف العقل ووظيفته الاساسية • والانتباه يرافق كل العمليات النفسية الهامة فبغيره لا نستطيع لا أن نتذكر حقا ولا أن نعرف ولا أن نبدع ، ولقد رأى فيه بعض الفلاسفة (ومنهم ديكارت ومالبرنش) القوة العارفة بالذات • وفي رأي هؤلاء أن الحقيقة لا تتجلى الا للانسان المنتبه • ويرى (ما لبرنش) أن الحرية ليست الا مقدرتنا على التصرف في انتباهنا •

وهو أيضا شرط أساسي في الابداع فكلنا يرى الظواهر الطبيعيةولكن العبقري وحده الذي ينتبه بدقة اليها يتمكن من تحليلها في أدق أجزائها فيبدع الفكرة التي تفسرها • وسنرى أمثلة عن هذه النقطة في الباب الثاني من هذا الكتاب عند كلامنا عن الفرضية العلمية ودورها وشروط الوصول اليها •

٥ ـ تراخي الانتباه :

اذا كان الانتباه فعالية عالية فهو يستلزم كما قلنا توترا نفسيا عاليا وهذا التوتر متعب للانسان ولهذا فالانتباه لا يدوم طويلا ، فالطالب الذي يصغي الى الدرس بكل ما عنده من قدرة الى الانتباه ، تمر عليه فترات شرود عديدة يسبح فيها مع خيالاته • ولا يمكن لانسان أن يستمع الى محاضرة مهما كانت شائقة وقيمة دون أن يشرد عنها • وكلما ازداد تعب الانسان ازداد شروده ، فعند الظهر وبعد أربعة دروس متوالية لا يستطيع الطالب أن يركز انتباهه مطلقا فيستسلم لاحلامه •

وعندما يسترخي الانسان ليستريح بعد عناء طويل يزداد شروده فيدخل فيما يسمونه في علم النفس بـ (أحلام اليقظة) وهي حالات بين اليقظة والنوم ، فتتوالى الصور في ساحة الشعور دون أن يكون هناك رابط بينها •

وفي حالات التعب الجسمي كما في المرض ، لا يستطيع الانسان أن يركز انتباهه الا لفترات قصيرة جدا •

أما الامراض النفسية والعقلية فكلها تصيب الانتباه وتعطله لانها حالات توتر نفسي ضعيف ، ويصبح التلاؤم مع المحيط فيها ضعيفا جدا .

خلاصة

١ ــ الانتباه تركيز الشعور وتوجيهه نحو هدف خارجي أو داخلي .
٢ ــ وهو على أنواع (حسي ــ نفسي ــ عقلي) و (قسري ــ عفوي ــ توقعي ــ ارادي) .
٣ ــ شروط تحقيقه : تلاؤم عضلي حركي ، وتلاؤم ذهني .
٤ ــ خصائصه : وسيلة أساسية من وسائل المعرفة ــ يمكن الانسان من السيطرة على ذاته وعلى عالمه ــ قوة تأليف أي اصطفاء وحذف أو تحليل وتركيب . وهو فعالية نفسية عالية تستلزم العقل والارادة .
٥ ــ وظيفته : له وظيفة تلاؤم ووظيفة معرفة .
٦ ــ تراخي الانتباه : لا يدوم الانتباه طويلا ، وعندما يضعف يتراخى فيصبح شرودا وأحلام يقظة . والامراض العصبية والعقلية كلها تعطل الانتباه .

تمـــارين

١ ــ لاحظ حالتك النفسية وأنت تصغي الى درس تحبه ، وصف تطور انتباهك بين التوتر النفسي العالي وبين التوتر النفسي المنخفض .
٢ ــ يمكنك أن تقوم بالتجربة نفسها على درس لا تميل اليه ، وكيف أنت تجبر ذاتك على الانتباه لان هذا الدرس ضروري لامتحانك .
٣ ــ في حالة الانتظار (أي الانتباه) يبدو الزمان طويلا . لاحظ هذه الظاهرة وأنت تنتظر صديقا لك وصفها .

أسئـــلة

١ — بيّن الدور الذي يلعبه الانتباه في الادراك .
٢ — اشرح هذا القول : (النوم انعدام الاهتمام) .
٣ — بيّن ببعض الأمثلة البسيطة أن الانتباه يستلزم العقل والادارة .

نص

في هذا النص يشبه الفيلسوف الانتباه بالبصر . ادرس النص وبرهن على صحة هذا التشبيه .

علينا ألا نعجب من جهل الناس مادام الفكر الانساني لا يثبت على حال ، وقلبهم سريع التقلب مما يجعلهم في عجز عن الامعان الجدي وبالتالي النفاذ الى قلب الصعوبة اذا كانت كبيرة . اذ أن الانتباه الفكري هو بالنسبة لامور العقل كالبصر الذي نحدقه في الاشياء التي نراها . وكما ان الانسان الذي يعجز عن امعان عينيه بالاجسام المحيطة به لا يستطيع أن يراها جيدا فيميز بين أجزائها الصغيرة ويتعرف الى العلائق القائمة بين هذه الاجزاء ، كذلك الانسان الذي يعجز عن التحديق ببصيرته بالامور التي يريد معرفتها لا يستطيع أن يميز بين عناصرهاوعلائق هذه العناصر .

ومن الثابت أن المعارف هي في الرؤية الواضحة للعلائق بين الاشياء في الامور الصعبة ، على الفكر أن يرى (الكل) برؤية تتضمن عددا كبيرا من الروابط ، ومن الواضح أن هذه الرؤية تستلزم الانتباه ، والانتباه هو الذي يمكننا من أن نطلق حكما متينا على حقيقتها .

(« ما لبرنش ») ، البحث عن الحقيقة ، الكتاب الاول ، الفصل ٢٠ ، الفقرة ٣) (بشيء من التصرف) .



الفصل الثالث

الذاكرة والخيال

١ ـ الصورة

يمكنك اذا أغمضت عينيك أن تتصور الاشياء التي في غرفتك والغرفة كلها ، واذا وضعت رأسك بين يديك يمكنك أن تتصور المدرسة والصف وشارعا من شوارع مدينتك أو من غير ذلك مما يعرض لشعورك . هذه الحالات التي تتتابع دون أن يكون هناك مؤثر حسي يثيرك يطلقون عليها اسم صورة أو صور . ولكل المدركات او الاحساسات اذا شئت صور ، فالانسان يتصور لحنا موسيقيا أو رائحة أو طعماً او شيئا كان قد لمسه أو انفعالا أو غير ذلك من الحالات النفسية . فالتصور هو طريقة من الطرق التي يستعيد بها الانسان الاشياء ، ويختلف عن الاحساس والادراك في أن الشيء الذي نحس به أو ندركه حاضر أمامنا حقا يؤثر في حواسنا وفي جملتنا العصبية ، على حين تفترض الصورة غياب المؤثر أو الاشياء . وكما ان الادراك ليس صورة وفق الاصل عن الشيء بل هو انشاء ذهني كما رأينا ، كذلك الصورة يستمد الانسان عناصرها من الواقع الذي كان قد عرفه ثم يركبها أو ينشئها .ولهذا تختلف صورنا اختلافا كبيرا عن مدركاتنا ولا سيما اذا كانت بعيدة عنا في الزمان والمكان . فقد تقوم برحلة أو نزهة مع أصدقائك الى مكان جميل يبعث في نفسك سرورا كبيرا ، ثم تعود اليه بعد سنة فترى أنه هو نفسه بأشجاره ومياهه الخ ... ومع ذلك فهو يختلف اختلافا كليا عن الصورة التي بقيت في ذهنك عنه .

وهذا يدلنا على أن الصور التي نحفظها عن واقعنا نعيشها في نفسنا وتتبدل بتبدل عواطفنا واهتماماتنا ومشاغلنا . فللصورة حركيتها ونموها الخاص وحياتها

النفسية الذاتية ، فقد نضيف اليها من خيالنا ومشاعرنا ما يبعدنا عن الواقع •
وتختلف الصورة عن الادراك في نقطتين :

١ ـ غالبا ما تكون الصورة أضعف من الادراك وباهتة بالنسبة اليه إذ أن وجود الشيء أمامنا (في الادراك) يفرض علينا بألوانه وأشكاله أو بصوته وملمسه ورائحته• وغيابه (في الصورة) يضعف خصائصه الواقعية فيضعف اللون ويصبح الشكل غامضا •

٢ ـ ولكن في حالات نادرة قد تكون الصورة أقوى من الشيء المدرك اذ أن الشيء الذي نحبه ونبعد عنه نضيف انفعالاتنا وشوقنا اليه عناصر جديدة • فالصديق الذي يغيب عني يصبح الي شخصا مثاليا له كل الصفات الحسنة •

بكلمة مختصرة ، فان الصورة ـ شأنها في ذلك شأن الحالات النفسية الاخرى ـ انشاء ذهني •

فالنفس ليست مرآة للواقع بل هي قوة تأليف أو تركيب • فالصورة النفسية ليست صورة فوتوغرافية تسجل الاشكال والالوان ، وانما هي نمط من أنماط النشاط النفسي الذي أشرنا اليه عند بحثنا في الادراك وفي الانتباه •

٢ ـ الذاكرة

١ ـ التمييز بين الذاكرة وبعض الحالات النفسية التي قد تختلط معها :

تعرف الذاكرة مبدئيا بأنها استعادة الماضي مع معرفتنا أنه ماض • وتتبين معنى هذا القول اذا وازنا بين الذاكرة وبعض الحالات النفسية التي قد تختلط معها لانها هي أيضا اعادة للماضي وهي :

أ ـ الذاكرة والعادة : فالعادة مجموعة حركات آلية أو شبه آلية يقوم بها الانسان دون ان يفكر بها كالضرب على الآلة الكاتبة وركب الدراجة • فالطفل الذي يردد قصيدة حفظها غيبا دون أن يفهمها ينساق مع آليات مسجلة في جملته العصبية وعضلاته ، فاعادة هذه عادة لا ذاكرة • أما الطالب الذي يعيد قصيدة ويدرك معناها وكيف ومتى ولماذا تعلمها فعمله نتيجة للذاكرة بالمعنى الصحيح للكلمة لانه يتضمن الى جانب الاعادة شعورا بالزمن وجهدا عقليا •

ب ــ الذاكرة والتداعي : يحصل التداعي في حالة تراخي الانتباه التي أشرنا اليها سابقا ويجري على شكل عفوي • فاذا كنت سائرا في الطريق وذهني شارد وخطرت لي صورة المدرسة فهي تستدعي صورة الاستاذ مثلا وهذه ربما صورة شخص يشبه الاستاذ وهذه الاخيرة ربما صورة نزهة قمت بها مع الشخص المذكور وهكذا الى مالا نهاية له من الصور والانفعالات والمدركات الخ لا يربط بينها رابط منطقي أو عقلي • أما في الذاكرة فأنتبه وأصطفي من ماضي الافكار والصور المدركات التي تتلاءم مع الفكرة التي أرغب في تذكرها • فالذاكرة كالانتباه تحليل وتأليف بين حالات نفسية متماسكة • ان الذاكرة كالانتباه والادراك فعل نفسي عال وعقلي •

ج ــ الذاكرة والادراك : تتميز الذاكرة من الادراك (والاحساس) في أن الاشياء التي ندركها حاضرة أمامنا فعلا • أما الاشياء التي تتذكرها فغائبة وهي من الماضي وربما من الماضي البعيد •

د ــ الذاكرة والصورة : تتفقان في نقطة واحدة وهي أن موضوع الاثنين من الماضي • ولكننا لا نشعر عند استحضار الصورة بأنها من ماضينا واذا شعرنا بذلك فلا يعنينا أن نعين على الضبط موقع الصورة في ماضينا فقد يتصور الطالب ما قام به من ألعاب في الفرصة ولكن لا يعنيه متى لعب • وتصبح الصورة ذكرى عندما تتركز في زمان ومكان معينين • ثم ان الصورة كالتداعي حالة عفوية لا يرافقها أي جهد ، أما التذكر فمصحوب بجهد عقلي ويستلزم الانتباه • وخلاصة القول : ان الذاكرة تتميز من الحالات النفسية التي تشبهها بخاصتين الاولى انها من الماضي، والثانية أنها تقتضي فعلا عقليا يركزها ويضبطها فالذاكرة كالانتباه والادراك فعالية عقلية عالية ولهذا تلعب دورا اساسيا في انشاء المعرفة أما الحالات التي أشرنا اليها ففعالية نفسية دنيا دورها ضعيف في انشاء المعرفة •

٢ ــ وظائف الذاكرة أو مراحل تكونها :

وهي أربع :

أ ــ الحفظ أو التثبيت : يستند الحفظ الى عدة عوامل هي التالية (نرتبها من أقلها الى أكثرها أهمية)

١ ــ التكرار : فقلما يحفظ الانسان نصا ما لمجرد قراءته مرة واحدة • والطلاب يعرفون بتجربتهم أن الاعادة مرارا وتكرارا ضرورية لتثبيت الذكريات •

٢ ــ الاهتمام : فالانسان لا يحفظ الا ما يعتقد انه من مجالات اهتمامه •
٣ ــ الانتباه الارادي : والا أصبح الحفظ عادة •
٤ ــ الفهم : فالذي نحفظه دون أن نفهمه يصبح عادة •

لنلاحظ على سبيل المثال كيف يحفظ الطالب مقطوعة شعرية : فهو يحللها أولاً ليفهم ولو بشكل تقريبي صورها ومعانيها ، ثم يحاول أن يجد فيها نقاط استناد لغوية أو فكرية تساعده في عملية التكرار ، ولكي يدرك الموضوع بدقة يسعى لكي يجد نقاط تشابه بين ما يحفظه الآن وما كان قد حفظه في الماضي فالذي حفظ عددا من قصائد المتنبي يسهل عليه حفظ قصيدة جديدة لان للمتنبي صورا وأفكارا وطرقا في التعبير تتشابه من قصيدة الى أخرى • واذا دققنا في عملية الحفظ نلاحظ أنها ــ ككل العمليات النفسية العالية ــ تحليل وتركيب أو نظرة جزئية تليها نظرة كلية فجزئية وهكذا حتى تصبح القصيدة جزءا لا يتجزأ من شخصيتنا فكأننا نصهر الحاضر (النص الذي نحفظه) في الماضي (النصوص التي كنا حفظناها) والماضي في الحاضر •

ب ــ استعادة الذكريات : أو استرجاعها وهو على نوعين : **عفوي وارادي •**

فالعفوي يتم بدون جهد كأن أرى كتاب قراءة فأذكر المقطوعة الشعرية التي كان الاستاذ قد شرحها في الدرس السابق وهذا التذكر أقرب الى تداعي الافكار الذي أشرنا اليه سابقا منه الى التذكر بالمعنى الدقيق للكلمة لانه يتم بدون جهود أو هو درجة متوسطة بين الذاكرة الحقيقية والتداعي • اما الاستعادة الارادية ، فتستلزم نشاطا ذهنيا وجهدا عقليا كأن أرى شخصا يلوح لي ، انني أعرف تقاطيع وجهه وحركاته ، وأسمع نبرة صوته فأشعر بأنه أليف الي ولكنني أعجز عن تذكر اسمه وتعيين هويته ، فأرتبك وأخجل من جهلي وأشعر بفراغ في نفسي • فالاسم في أعماق ذاكرتي يصعب علي أن أنقله الى ساحة الشعور الواضح وتتوالى الصور والاسماء على ساحة شعوري بسرعة ولكني أزيحهـا بسرعة لانها ليست مطابقـة للشخص الذي أراه فأتنبه وأحاول أن استعيد الزمان والمكان اللذين رأيت فيهما هذا الشخص وفجأة يصعد من أعماق اللاشعور الواضح اسم الشخص فأعرفه •

مثال آخر : أنا في الامتحان أكتب مسابقة أدبية وعلي أن أتذكر عددا من الابيات الشعرية فأقوم بتحليل دقيق لمعلوماتي السابقة وأذكر بيتا من الشعر ولكن

غير مستقيم الوزن فما أزال أصححه حتى يستقيم الوزن •

هذه الامثلة تدلنا على أن عملية استرجاع الذكريات عملية عقلية وارادية صعبة تستلزم الشعور والانتباه والحكم وغير ذلك من القوى النفسية العالية •

ج ـ **التعرف** : وهو أدق من الاستعادة وأصعب منالا اذ يقوم على ادراك الماضي بما هو ماض فعندما يستعيد الطالب في الامتحان معلوماته لا يعنيه أحفظ هذه المعلومات في كانون أم في نيسان • هو يشعر بأنها من الماضي ولكن بشعور غامض • ان الشعور بالماضي يرافق كل رجوع للذكريات سواء أكان تداعيا أم ذاكـرة • أما التعرف فيستلزم استعادة الماضي بما رافقـه من أحاسيس ومشاعر وانفعالات وألوان وأفكار الخ ••

مثال : أنت تسرد لصديقك حادثة شهدتها منذ عام وتحب ان تنقل الى هذا الصديق جو هذه الحادثة حتى يعيشها معك ، فتسترجع صور الاشخاص الذين اشتركوا فيها وأقوالهم وحركاتهم وانفعالاتهم • فكأنك تعيش الماضي من جديد وأنت تعرف أنه ماض •

ان لاعادة الماضي بما هو ماض (أو التعرف) خاصتين :

الاولى أنه يستلزم جهدا عقليا واراديا أكبر من الجهد الذي تستلزمه الاستعادة فهو تأليف بالمعنى الدقيق للكلمة •

الثانية ، أنه ، أيا كانت اللغة التي نسرده فيها ، ذو صفة فنية فهو يستأثر بقلب السامع وينسيه حاضره لينقله الى جو طريف ولهذا كان للمذكرات التي يكتبها السياسيون (على ما فيها من تحريف للحوادث) وللاعترافات التي يكتبها الادبـاء عن حياتهم (كاعترافات جان جاك روسو واعترافات الغزالي في المنقذ من الضلال) رواج كبير بين القراء والواقع أن الماضي لايعود كما هو بل يمتزج بعواطفنـا ومشاغلنا الراهنة ، وانما يعود لون الماضي • أما واقعه ـ واقع الحوادث الحقيقي ـ فيستلزم جهدا اضافيا لا يستطيع أن يقوم به الا المؤرخ • وسنرى في القسم الثاني من هذا الكتاب (فصل التاريخ) صعوبة هذه العملية وما تتعرض له من مزالق •

د ـ **تعيين الذكريات** : (ويقال عنه أيضا : استدعاء) وهو أدق وأصعب من العمليات السابقة اذ يفترض تذكر المـكان والزمان اللذين وقعت فيهما الحادثة ، كأن أقول : رأيت هذا الشخص يوم كذا ساعة كذا في المكان الفلاني •

ان التذكر ـ بكل مراحله ووظائفه ـ انتقال من الحاضر الى الماضي القريب او البعيد أو البعيد جدا • واذا كان الماضي بعيدا ، فعلى الانسان ان يجد بينه وبين الحاضر نقاط استناد تساعده على الاستعادة والتعرف • فقد ترى صديقا غاب عنك زمنا طويلا وتتساءل متى رأيته وتجيب : في فحص الكفاءة ؟ كلا • لانه كان غائبا • في القبول للاعدادي ؟ كلا • اذا يجب أن يكون رفيقي في التعليم الابتدائي • وهكذا •

٣ ـ النسيان :

يعرف النسيان بأنه العجز عن استعادة الذكريات وأحيانا استحالة هذه الاستعادة ويعرف أيضا بأنه الزوال المؤقت أو الدائم لما كنا قد حفظناه • وهو على نوعين :

١ ـ نسيان سلبي : وهو اما نقص التثبيت ، ويحصل عندما نحفظ بسرعة أو نحفظ أمورا لا تثير اهتمامنا كالطالب الذي ينسى بعدالامتحان المواد التي لا يحبها • وإما العجز عن الاستعادة فنحن تتناسى أخطاءنا وعلى مر الزمن ننساها ، كما نتناسى المواقف المخجلة والاحداث التي لا تعجبنا فنعجز عن استعادتها •

٢ ـ نسيان وظيفي : وهو ضروري للذاكرة فالذاكرة السليمة لا تقوم على حفظ وتثبيت واستعادة كل ما درسه الانسان أو رآه أو سمعه ، انما هي انتقاء فلا يمكن الانسان ان يحتفظ في ذاكرته بكل ما علمته اياه المدرسة في مواد التاريخ والجغرافية والرياضيات الخ •• وانما ينتقي من هذه المواد ما هو ضروري لاختصاصه في الجامعة ولثقافته وحرفته •

فالنسيان بهذا المعنى طبيعي وتابع للاهتمام ، فنحن ننسى كلّ ما مر معنا في الطفولة وفي الشباب الاول ولا نحتفظ منه الا ببعض الحوادث البارزة ، لان هذا الماضي البعيد لاينفعنا عندما نبلغ سن الرشد وتتخصص في دراسةمعينة اوفي حرفة• فما فائدة لعب الكرة الذي كان يمارسه الطالب عندما كان صغيرا اذا كان في سن الرشد يدرس مادة الرياضيات مثلا ويتخصص فيها ؟

٤ ـ طبيعة الذاكرة :

الذاكرة كالادراك والانتباه وظيفة نفسية عالية ومعقدة فهناك عدة عوامل تسهم في تركيبها ، وهي بذاتها مركبة من عدة وظائف •

أ ـ العوامل التى تسهم في تكوين الذاكرة : تستند الذاكرة في تكونها الى

عوامل عضوية واجتماعية وفردية وعقلية شأنها في ذلك شأن القوى النفسية كلها •

١ ــ العامل العضوي : تفترض الذاكرة جهازا عضويا سليما ومرنا • فالولد يحفظ ويستعيد بسهولة ــ لا يملكهاالانسان المسن ــ بسبب مرونة جملتهالعصبية، والمريض يعجز عن تثبيت الذكريات •

٢ ــ العامل الاجتماعي : ان الانسان يرتب ذكرياته وفقا لاطر المجتمع العامة (السنة ، الشهر ، الخ) ولاطر مجتمعه الخاص فنحن نرتب ذكرياتنا حول أعيادنا القومية والدينية ووفقا لتقاليدنا كما ان لكل أسرة تقاليدها وكذلك النقابات والاتحادات فما يحفظه الطالب غير ما يحفظه العامل أو النجار والفلاح الخ •

٣ ــ العامل الفردي وهو تابع لاهتمامات كل منا وانفعالاته وذوقه ودرجة ثقافته فأنا أحب شعر المتنبي فأحفظه بسهولة وأنت تفضل الشعر الجاهلي فتحفظه بسهولة وهكذا •

٤ ــ العامل العقلي وهو أهم العوامل اطلاقا لان ما نحلله ونفهمه بدقة هوالذي يثبت في ذاكرتنا ونستعيده بسهولة • ان الذاكرة كالادراك والانتباه عملية تحليل وتركيب (تأليف) تقوم على الانتقاء ، فنحن نصطفي من مجموع معلوماتنا مانحكم بحكم عقلي أنه هام ويجب أن يحفظ •

ب ــ الذاكرة مركبة من عدة وظائف : ليست الذاكرة وظيفة واحدة فهي كما رأينا تثبيت أو حفظ ومن ثم استعادة فتعرف فتعيين •

وتستند الذاكرة الى الادراك والانتباه والعقل الخ فنحن نحفظ ما ندركه بوضوح وما ننتبه اليه وما نفهمه والذاكرة بهذا المعنى عملية كلية تنصهر فيها عدة عمليات جزئية هي التي نشير اليها الآن • واذا كنا نحلل هذه العمليات (العامل الاجتماعي ــ الاهتمام ــ الانتباه ــ العقل) فلكي نفهمها • أما في الواقع فكلها تندمج بعضها ببعض وتعمل معا •

ويمكننا القول بشكل عام ان النفس حاضرة في عملياتها •

٥ ــ أمراض الذاكرة :

اذا كانت الذاكرة عملية معقدة تشمل عدة وظائف ، واذا كانت الذاكرة عملية عالية تستلزم العقل فهي معرضة لاضطرابات وأمراض كثيرة كالادراك والانتباه • ونذكر من هذه الامراض على سبيل المثال ما يلي :

١ ـ الأمنزيا : أو فقدان الذاكرة فقد يدرك المريض الحوادث آنيا وبعد قليل من الزمن ينساها تماما فكأنها لم تكن وتحصل هذه الحالة في مرض الشلل • وقد تصيب الانسان صدمة نفسية أو معنوية فينسى كل ما حدث له في اسبوع كامل أو اكثر ومن هذا النوع أيضا الأفازيا (ويقال لها حِبسة) كأن ينسى المريض نسيانا تاما أو شبه تام لغة أجنبية كان قد حفظها •

ومنها أيضا الابركسيا (أو اختلال الوظائف الحركية) اذ ينسى الانسان مجموعة حركات كان يتقنها (الضرب على الآلة الكاتبة مثلا) •

٢ ـ البرامنزيا (أو اضطراب التعرف) ويقال لها أيضا (التجهل) وهو مرض يحصل خصوصا عند الكهول ويتناول الاستعادة ، وفيه يعتقد الانسان أن كل مارآه كان قد رآه في السابق •

٣ ـ الهبرمنزيا (أو تضخم الذاكرة) وهو مرض شبيه بالوهم (الهلوسة) وفيه يصبح الماضي حاضرا في جزئياته الصغيرة •

٣ ـ التخيل

١ ـ تحليل التخيل :

كثيرا ما يستعيد الانسان صفحة من صفحات حياته الماضية فيراها أمامه بألوانها وأشكالها وانفعالاتها ومعانيها نابضة بالحياة • لقد كان في حفلة سمر مع أصدقائه يتبادلون الاحاديث الشائقة ويستمعون الى معزوفات جميلة ولا يعنيه من هـذه الاستعادة ان يعرف كيف ومتى حصلت بل يعنيه الاستمتاع بها •

هذه الحالة النفسية ليست ذاكرة لاننا لا نسترجع فيها الماضي لنعرفه بظروفه الخاصة ، بل هي تخيل لاننا نضيف اليها من خيالنا ما يزيدها جمالا ومتعة •

وقد يتفق أن يتوجه الخيال نحو المستقبل لا نحو الماضي • فالطالب بعد أن ينجح في الامتحان يتصور ذاته وقد أصبح ضابطا يأمر وينهي وهو مرتد بزته الجميلة ويخوض المعارك ليدحر اسرائيل ، أو قد يتصور ذاته سياسيا كبيرا يدافع في هيئة الامم عن بلاده وعن كل البلاد المستعمرة • هذه الامثلة تبين لنا الفرق بين الخيال من جهة والذاكرة والادراك من جهة ثانية فالادراك مرتبط بالواقع المباشر (ما هو حاصل أمامي فعلا) أما الخيال ، وان كان يستمد عناصره من الواقع فهو

يكونه على شكل جديد • والذاكرة تحاول أن تستعيد الماضي وان كانت هي أيضا تنشيء هذا الماضي ، وهي أيضا مصحوبة بشعور الماضي أي بشعورنا أن الحالة الحاضرة في النفس هي من الماضي • أما الخيال فيضيف الى الماضي من الرغبات والصور ما يجعله (تبعا للحالة النفسية) أجمل أو أقبح مما كنا نعليه •

قلنا ان الخيال يستمد عناصره من الواقع الراهن أو الماضي ولكن هذه العناصر تنصهر في كلٍّ جديد يجعلها غير واقعية وبعيدة عن الواقع • فالشاب الذي يتصور نفسه ضابطا يقود معركة رأى الضابط وتأمل في سلوكه ودوره وتعرف الى المعركة فيما تكتب عنها الصحف أو رآها في لوحة فنان أو قرأ عنها في التاريخ • ولكن المعركة التي يتصورها غير ذلك ، انها معركة مثالية ان صح التعبير فهي تسير من نصر الى نصر •

أ ـ الخيال يرافق سلوكنا كله : عندما نقوم بعمل من الاعمال لا نعتمد فقط على ما ندركه فعلا أو ما نستمده من واقعنا الراهن بل نضيف اليه صورا من الماضي وتتوقع نتائجه اذ تتصورها • فالطالب الذي يحل مسألة رياضية يتصور الاستاذ الذي شرحها والكتاب الذي قرأ فيه عنها كما يتصور العلامة التي يتوقعها والفرح الذي سيملأ نفسه اذا كان الحل صحيحا ، وكل هذه الصور من بنات خياله كما يقال•

ب ـ الخيال والصورة : الصور بالنسبة الى الخيال كالاحساس بالنسبة الى الادراك • رأينا الاحساس يقدم مادة أولى ينشئها الادراك • وكذلك الصورة فهي مادة الخيال الاولى • فعندما أتخيل تنبعث في شعوري لوحة كاملة تنسجم فيها الصور وتتكامل • وفي الخيال كما في الادراك الكل يسبق الجزء ، والجزء يستمد معناه من الكل ، فصورة الضابط التي أشرنا اليها أو صورة بزته أو صورة حركاته لا معنى لها بذاتها • وانما المعنى في ارادة الشاب الذي يريد بارادة عميقة أن تنتصر بلاده على اسرائيل وهذا المعنى هو الذي يؤلف بين الصور ويجعل منها كلا متماسكا وسلوكا معينا •

وليست الصور وحدها هي التي تكوّن مضمون الخيال ، بل هناك عواطف وأفكار وانفعالات تشترك في انشاء اللوحة الخيالية •

ج ـ الخيال وضع نفسي كلي وفعال :

١ ـ كلي كالادراك والانتباه ، يستثير النفس كلها في رغباتها وآمالها ، في

عواطفها وانفعالاتها ، في أفكارها ومعانيها •

٣ ــ فعال لأنه انشاء • ونفضل كلمة تخيل على كلمة خيال لان كلمة تخيل تشير الى الفعالية • ويقال أيضا عن التخيل في بعض أنواعه انه مبدع لانه يبدع فعلا وضعا نفسيا جديدا لا علاقة له بالحاضر ولا بالماضي ولا بالمستقبل • وقد يترتب عليه سلوك ما فعندما يتصور الطالب نفسه ضابطا وتتملكه الصورة يحاول تحقيقها فيطلب الانتساب • الى الكلية الحربية •

٢ ــ نوعا الخيال :

يميز علماء النفس بين نوعين من الخيال :

أ ــ الخيال الارجاعي : أو العفوي وهو شبيه بالاستعادة العفوية ، بالذاكرة وبالتداعي حتى ليكاد يمتزج معهما ، اذ في كل هذه الحالات تتوالى الصور على ساحة الشعور دون أن يكون للفعالية النفسية أثر كبير • ونحن نعرف هذا النوع من الخيال بتجربتنا اليومية • فاذا كنا في اجتماع ممل نتصور عفويا حالاتمختلفة الرابطة بينها ضعيفة ، فأحلام اليقظة من هذا النوع •

ب ــ الخيال المبدع : وهو الخيال الحقيقي • لنلاحظ الفرق بين المصـــور الفوتوغرافي والمصور الفنان • ان التصوير الفوتوغرافي لا يخلو من فن حقيقي ، ولكنه في الحالات العادية يقوم على وضع نسخة طبق الاصل عن الشخص الذي يصور ، أما الفنان فتقوم عبقريته على أن يتأمل في هذا الشخص ليتبين المعنى العميق الكامن في نفسه والذي يبرز في تقاطيع وجهه أو عينيه أو في حركاته ، واستنادا الى هذا المعنى يرسم الشخص أي يجمع العناصر التي تدل بآن واحد على الشخص وعلى معناه • فعناصر الصورة الفنية من الواقع ولكن معناها وراء الواقع فهو ابــداع •

لنلاحظ أيضا الفرق بين الفنان العادي والفنان المبدع • اذا طلب المدرس من الطلاب المبتدئينرسم الربيع فكثيرا ما يرسمونشجرة خضراء عليها عصفور ووراءها شمس مشرقة وأمامها نهر جار ، أما الفنان فيرى الربيع في ابتسامة فتاة جميلة أو في زهرة تتفتح على غصن يابس الخ • وكذلك الموسيقي العبقري اذ يحول أغنية شعبية فولكلورية الى سنفونية • وهذا هو الابداع الفني •

٣ ـ تراخي الخيال :

رأينا عند دراستنا للادراك والانتباه والذاكرة أنهذه القوى النفسية قد تضعف وتتراخى فتؤدي الى انحرافات كثيرة وقد يصيبها مرض عصبي أو عقلي فتؤدي الى حالات شاذة ، وكذلك الخيال •

أ ـ الحالات الدنيا من الخيال : عندما يتعب الانسان يستسلم للتداعي ، كما رأينا ، فتتوالى على ساحة شعوره الصور والافكار دون ترتيب • وقد يشعر في التعب أنه مغلوب على أمره وأن التلاؤم بينه وبين البيئة صعب فيكوّن لنفسه عالما خياليا خاليا من الصعوبات وقد ذللت فيه كل العقبات الواقعية وأنه مثلا قد انتصر على أعدائه وحقق كل رغباته • ومن هذا النوع أحلام اليقظة التي أشرنا اليها • وكذلك أحلام النوم وقد رأى فيها « فرويد » وأصحاب مدرسة التحليل النفسي تحقيقا لرغبات مكبوتة ، فما لا يتحقق في اليقظة ، يتحقق في المنام •

وفي كل هذه الحالات ، تكون النفس منفعلة أو قابلة لا فاعلة • فهي تتلقى الصور وتقبلها على حين هي التي تنشئها في حالة التخيل المبدع •

ب ـ الخيال المرضي أو تضخم الخيال : ويحصل في حالة الفصام Schizophrenie ولا يعنينا أن ندخل في تحليل هذا المرض النفسي الذي يتناول الشخصية في أعماقها فيفسخها وانما المهم هو أن المريض يصاب بتضخم في الخيال فيرى عالما غريبا أشبه شيء بعالم السحر ، ألوانه حادة قوية وواضحة •

خلاصة

١ ـ الصورة : حالة نفسية تحصل بعد زوال المؤثر الذي يبعث الادراك ولكل حاسة صورة خاصة بها فهناك صور بصرية وصور سمعية وصور شمّية وصور ذوقيـــة •

٢ ـ الذاكرة : وقوامها بشكل خاص استعادة الماضي على أنه ماض وهي عدة وظائف : الحفظ أو التثبيت ـ استعادة الذكريات ـ التعرف اليها أي معرفة أنها من الماضي ـ تعيين أي تحديد موقع لذكريات من الماضي في الزمان والمكان • ولا تعيد الذاكرة الماضي كما هو (فهذا من شأن علم التاريخ) وانما تنشئه انشاء وتستند الى عدة عوامل : العامل الحيوي والعامل الاجتماعي والعامل الفردي والعامـــل

العقلي والذاكرة وظيفة كلية أي تقوم به النفس كلها بالاعتماد على الادراك والانتباه والعادة والتداعي ، وعلى العقل بشكل خاص ويلازمها النسيان لانه ضروري لها •

وتتعرض ككل الوظائف العقلية الى عدة أمراض منها النسيان وتضخم الذاكرة •

٣ ـ **الخيال :** ويقوم على انشاء عالم عناصره مستمدة من الواقع ولكنه غير واقعي والصورة من أهم عناصره وهو على نوعين : خيال ارجاعي وتكون النفس فيه منفعلة (قابلة) وخيال مبدع لانه ينشيء عالما مبتكرا كما في الفن بأنواعه وهو أيضا معرض للانحراف والتراخي (أحلام اليقظة) والمرض •

تمـــارين

١ ـ حاول أن تستعيد في خيالك منظرا رأيته بجوار مدينتك منذ سنة تقريبا وسجل الصور التي رسخت في ذهنك ثم زر المكان نفسه ووازنه بهـذه الصور وحقيقتها الواقعية وقل هل الواقع أقوى أو أضعف من الخيال ، هل الواقع أجمل من الخيال أو أقل جمالا •

٢ ـ اختر من محفوظاتك قصيدة تحبها واذكر العوامل التي ساعدتك عـلى حفظها •

٣ ـ بيِّن بمثال واضح أن الزمان يطول في حالة الانتظار ويقصر في حـالة الفـرح •

٤ ـ سجل صباحا حلما من أحلام النوم • وبعد اسبوع سجله مرة ثانية دون أن تراجع التسجيل الاول وكرر التجربة بعد شهر ، وادرس تطور الصورة في الاحوال الثلاث • ما الصور التي أصبحت أقوى مما كانت عليه وما الصور التي أصبحت أضعف مما كانت عليه ؟ بيِّن السبب •

٥ ـ كتبت وظيفة انشاء في وصف نزهة بين فيها دور الخيال ودور الواقع •

٦ ـ كتبت وظيفة تحليل أدبي • بيِّن كيف حللت معلوماتك السابقة وأعدت تركيبها في تأليف جديد •

أسئـــلة

١ — ما الفرق بين التحليل والتذكر ؟

٢ — دور العقل في انشاء الذكريات •

٣ — وازن بين الادراك والتذكر •

نص أول

في هذا النص يميز برغسون بين نوعين من الذاكرة : الاول هو الذاكرة بالمعنى الدقيق للكلمة (أو الذاكرة المحضة كما يقول) والثاني العادة أو (الذاكرة ـ العادة) كما يقول ، اقرأ هذا النص بدقة ويبيّن الفرق بين الذاكرتين •

أدرس درسا ولأغيبه اقرؤه أولا مقطعا كل بيت ، أكرره بعدئذ عددا معينا من المرات • كلما قرأته مرة حصل تقدم ، ترتبط الكلمات أحسن فأحسن وتنتهي بأن تنظم معا • وفي هذه اللحظة المحدودة أعرف درسي عن ظهر قلب ، يقال انه أصبح ذكرى ، انه انطبع في ذاكرتي •

أبحث الآن عن كيفية حفظ الدرس ، وأتمثل ذهنيا المراحل التي مررت بها بالتناوب • وكل قراءة من القراءات المتتابعة تعود الى ذهني بفرديتها الخاصة ، أراها ثانية مقرونة بالظروف التي رافقتها والتي ما تزال تحيط بها احاطة اطار : انها تتميز من التي تسبقها ومن التي تلحقها بالمكان الذي شغلته في الزمان ، وقصارى القول أن كل قراءة من هذه القراءات تمر امامي ثانية كحدث معين من أحداث تاريخي • سيقال أيضا ان هذه الصور هي ذكريات وانها انطبعت في ذاكرتي • تستعمل الكلمات عينها في الحالتين ، فهل يدور الامر على شيء واحد ؟ •

تتصف ذكرى الدرس ، باعتباره قد أصبح معروفا عن ظهر قلب ، بكل صفات عادة من العادات ، انها كالعادة تكسب بتكرار الجهد نفسه •••

وبالعكس فذكرى احدى القراءات الخاصة ، الثانية أو الثالثة مثلا ، لا تتصف بأية صفة من صفات العادة • ان صورتها قد انطبعت بالضرورة معي أول مرة في الذاكرة ، اذ أن القراءات الاخرى تؤلف بالتعريف ذكريات مختلفة • انها تحدث في حياتي ، كحدث يحمل بجوهره تاريخا ولا يمكن له بالتالي أن يتكرر •

(هنري برغسون ، المادة والذاكرة ، ترجمة أسعد درقاوي ، الصفحة ٧٩ـ٨٠)•

نص ثان

في هذا النص يعرف الفيلسوف الخيال المبدع : لاحظ صفات التخيل المبدع من تحليك للنص •

يعتقدون أن المخيلة هي وظيفة تنشىء الصور ؛ لكن بالاحرى انها وظيفة تشويه الصور التي تأتينا عن الادراك . وتحريرنا منها وتغييرها • فلو لم تتغير الصور وتتحد بعضها مع بعض على شكل غير منتظر لا يمكن أن يكون هناك تخيل ولا عمل خيالي • واذا لم تذكرنا الصورة الحاضرة بصورة غائبة ، اذا لم تبعث صورة عارضة عددا غزيرا من الصور . اذا لم تبعث تفجرا في الصور ، فليس ثمة مخيلة •• ليست كلمة صورة هي التي تقابل كلمة خيال ، بل كلمة (خيالي) وتقاس قيمة الصورة بسعة هالتها الخيالية ، فالخيالي هو في ماهيته وظيفة انفتاح وافلات من الواقع • الخيالي في النفس هو تجربة الانفتاح ، تجربة الشيء الجديد ، وهو الذي يمنح للنفس صفتها النوعية • وبهذا المعنى يقول « بلاك » ليست المخيلة حالة، بل هي الوجود الانساني ذاته » • ونستطيع أن تتأكد من صحة هذا القول اذا درسنا الخيال الادبي حيث تنشىء اللغة عالما روحيا ينتزعنا من الواقع •

وبالعكس فالصورة التي تأخذ شكلا محددا تصبح تدريجيا كالادراك اذ تنزع نحو العمل • ان في الصورة الثابتة والكاملة تمزق أجنحة المخيلة ••• ان في التخيل فائضا عن الصور فالقصيدة نزوع نحو صور جديدة يعبر عن حاجة الانسان الى الجديد ، وهذا النزوع هو الذي يميز النفس الانسانية •

(بشلار ، الهواء والاحلام)

(بشيء من التصرف)



الفصل الرابع

الذكاء والإبداع

١ ـ الذكاء

لنلاحظ أولا الذكاء في مفهومه الشائع • الانسان الـذكي من تميز بحسن الجواب وسرعة التخلص في المواقف الحرجة ، أو من كان ماهرا في تدبير شؤونه ، أو من كان حاضر البديهة سريع النكتة • والذكي أيضا من كان سريع الفهم راجح العقل ، نافذ البصيرة عميق النظرة • هذه الصفات التي ينسبها الحس العام للانسان الذكي تطلعنا على عدد من خصائص الذكاء ولكنها لا تكفي لتحديد طبيعته ، فالطالب الذي يفهم الدرس بسرعة ذكي • وأذكى منه ذلك الذي يحل بسرعة مسألة رياضية صعبة ، أو ذلك الذي اذا ما ألقى عليه المدرس سؤالا صعبا في الفلسفة أجاب عنه على شكل مبتكر • ولكن قد يكون الطالب بطيء الفهم في الدرس بطيء الوصول الى نتيجة عند حل مسألة أو كتابة وظيفة ومع ذلك فاذا ما واصل تحصيله بدأب وجد تفوق بالنتيجة على أقرانه •

فالذكاء انواع •

وهو أيضا درجات • فالعامل الماهر ذكي • والفنان الذي يبتكر لوحة جميلة ذكي والشاعر الذي ينظم قصيدة تعبر عن أماني أمته ذكي • وأسمى ذكاء من كل هؤلاء السياسي الذي يمكن أمته من تحقيق أهدافها •

ويمتاز الذكاء اكثر ما يمتاز بالابتكار • وأعلى درجاته العبقرية •

١ ـ نوعا الذكاء :

رأينا في أبحاثنا السابقة أن الانسان كائن عامل وكائن عاقل بآن واحد • فلننظر الى الذكاء بهذين المنظارين كي نفهم طبيعته •

أ ـ الذكاء العقلي : العمل كما رأينا غايته التلاؤم مع البيئة • فالحشرات تتلاءم مع بيئتها بوساطة الغريزة على شكل آلي وفطري كالنحلة التي تصنع خليتها بدقة لا مثيل لها ولكنها لا تعلم ما تصنع ولهذا لا تتقدم في عملها • والانسان العادي يتلاءم مع بيئته بوساطة العادة ، والعادة تدفعنا اليوم نحو السلوك الذي سلكناه بالأمس فهي أيضا تلاؤم آلي • فللفرد عاداته وللمجتمع عاداته كالنجار الذي يستخدم الوسائل نفسها التي استعملها عندما تعلم حرفته فيصل الى النتائج نفسها• وكذلك الموظف في (روتينيته) •

هذه أنماط من السلوك الآلي والتلاؤم الآلي أيضا •

ولكن الظروف الخارجية في الطبيعة والمجتمع لا تبقى على حال واحدة ، بل هي في تبدل سريع خصوصا في أيامنا ، وعلى الانسان أن يجد حلولا جديدة للمواقف الطارئة ، وهذا هو الذكاء العملي والانسان وحده قادر عليه فقد أوجد في العصور القديمة العصا لكي يدافع عن نفسه ، ثم اكتشف المعادن فأبدل العصا بالسيف • واكتشف البارود فاستعاض عن السيف بالبارودة والرشيش ، وفي نهاية المطاف استنبط الصاروخ •

وكذلك وسائل النقل فهي الآن الطائرة بعد أن كانت الحيوان ، ووسائل الغذاء فالانسان اليوم يجني من الصحراء حاصلات كان يعجز البدائي عن الحصول عليها في الحراج الغنية بثمارها • وكذلك قل في الدفء وفي كل ما يحتاج إليه الانسان لضمان بقائه ورفاهيته •

ونستطيع تلخيص هذا التطور العجيب الذي نقل الانسان من حياة بدائية شبيهة لحد بعيد بحياة الحيوان الى أعلى مستويات الحضارة بعبارة مختصرة هي : أنّ الانسان كان في السابق يتكيف مع الطبيعة ليضمن استمراره في الوجود فأصبح يكيفها ويخضعها لارادته كي تلبي حاجاته ورغباته • لقد بدل الانسان وجه الطبيعة تبديلا كاملا فأنشأ المدن وشق الطرقات وعبر البحار وسيطر على القوى الطبيعية (البخار ـ الكهرباء ـ القوة النووية) وهو في طريقه الى السيطرة على القوى الكونية والفضاء الخارجي •

فالتقنية التي تطلع علينا كل يوم بآلات جديدة يعجز الخيال عن تصورها ، هي

التي مكنت الانسان من السيطرة على الطبيعة ، وهي الآن أداة التلاؤم ، والتقنية نتيجة للذكاء المبدع .

فالذكاء اذا من الوجهة العملية تلاؤم من مستوى عال ، لا بل هو أعلى أنواع التلاؤم : أعلى من الادراك والانتباه . والذاكرة وغيرها من القوى النفسية لانه قوة ابتكار وابداع تطور وتنمي الانسان والبيئة بآن واحد .

ب ـ الذكاء النظري : يعرف الطالب من تجربته في حل المسائل الرياضية معنى الذكاء النظري . فاذا طلب منه أن يكتب نظرية ما في الهندسة يكفيه أن يستعيد بذاكرته ما كان قد حفظه في الكتاب . أما حل المسألة فيفترض أولا رسم الشكل ثانيا ادراك العلائق القائمة بين عناصره ثالثا حدس النقطة التي ينطلق منها الحل ، وهذا الحدس هو الذكاء بالذات لانه لا يقتصر على استخدام المعلومات السابقة بل يعيد تنظيمها على شكل جديد[1] .

واذا طلب من الطالب أن يجيب عن هذا السؤال : ما الفرق بين الذاكرة والادراك فلا يكفي أن يلخص ما كان قد حفظه في الكتاب عن الذاكرة ثم عن الادراك ، بل عليه أن يكتشف النقطة التي تميز بينهما وهي أن قوام الذاكرة استعادة الماضي وقوام الادراك فهم الحاضر أو الواقع الراهن . وحول هذه النقطة تتجمع بقية المعلومات المكتسبة .

ولا يختلف بهذا المعنى ذكاء العالم عن ذكاء الطالب الا بالدرجة . فكلنا نلاحظ ظاهرة هامة اليوم هي الهجرة من الريف الى المدينة ولكن العالم وحده يكشف عن أسبابها الاقتصادية والسياسية وغيرها ويعينها بدقة .

ولهذا عرّف الذكاء النظري بأنه ادراك العلائق ، ونقصد بكلمة ادراك العلائق الكشف عن روابط بين الاحداث تبرز معقوليتها أي تشرحها .

ج ـ الذكاء العملي والذكاء النظري متحدان كل منهما بالآخر : ميزنا بين هذين النوعين من الذكاء لنفهمها وهو تمييز مجرد ، أما في الواقع فلا يمكن الفصل بينهما اذ أن كلا منهما يفترض الآخر . فتطوير البيئة والاستفادة منها الذي أشرنا اليه سابقا يفترض معرفتها معرفة نظرية دقيقة . والذكاء النظري يطور العمل عاجلا أو آجلا فيجعله أكمل مما كان عليه في السابق وتقدم الرياضيات النظري خلال القرن

(١) راجع النص المثبت في آخر هذا الفصل .

التاسع عشر وفي القرن العشرين هو الذي أدى الى تطور الفيزياء وتطوير الفيزياء هو الذي أدى الى تطوير التقنية الذي نشهد الآن نتائجه العجيبة ٠

٢ طبيعة الذكاء :

أ ــ **الذكاء محصلة لكل القوى النفسية** : يستند الذكاء الى كل القوى النفسية كالادراك والذاكرة والخيال ، ولكنه يعتمد بشكل خاص على الانتباه والعقل ٠ فالانتباه هو الذي يمكن الطالب من فهم المسألة التي يريد حلها ، والعقل هو الذي يمكنه من تحليلها ٠

ب ــ **الذكاء محصلة لكل معارفنا المكتسبة** : هناك ذكاء طبيعي بلا شك يتجلى في سلوك الانسان ، ولكن الذكاء لا يعطي مردوده كاملا الا اذا استند الى ثقافة عامة واسعة ، فالذي يريد أن يعرف مثلا الاسباب الاقتصادية التي تدفع أبناء الريف الى الهجرة عليه أن يكون ملما الماما واسعا بعلم الاقتصاد وبعلم الاجتماع ٠

ج ــ **الذكاء ابداع حلول جديدة** : وهذا معناه أن الذكاء يتخطى القوى النفسية والمعارف المكتسبة فهي بالنسبة اليه بمثابة مادة أولية يستخدمها ٠ وسنرى في الفقرة التالية (الابداع) معنى هذا الكلام ٠

٢ ــ الابــداع

ان ما ذكرناه عن الخيال المبدع وعن الذكاء يصح في الابداع فهو الكشف عن فكرة جديدة كما في الفلسفة أو علاقة جديدة كما في الرياضيات أو ألوان وأشكال مبتكرة كما في التصوير أو أحاسيس وعواطف فذة كما في الموسيقا ٠

١ ــ درجاته :

ان كل انسان اذا حصل معارف كثيرة وانتبه وفهم وأراد أن يبتكر فهو مبدع ضمن حدوده فالطالب الذي يكتب وظيفة متفوقة مبدع والذي يحل مسألة رياضية صعبة مبدع وديكارت الذي طبق الرياضيات على الهندسة أو الخوارزمي الذي اكتشف اللغارتما كلاهما مبدع ٠

٢ ــ عوامله :

ان الابداع هو النفس كلها أو الانسان كله اذ يقفز بالمعارف والفنون قفزة جديدة ٠ فالتقدم الانساني ابداع والحضارة والثقافة ابداع مستمر ولكن تختلف

القوة النفسية التي تسيطر في الابداع باختلاف المجال الذي يبدع فيه العبقري •

فالعاطفة القوية اذا أضيفت الى عقل ناقد متعمق تنشىء قصة أو رواية جديدة • والحساسية المرهفة تكشف عن ألحان جديدة • ويروى عن بيتهوفن أنه عندما كتب السنفونية التاسعة بقي أشهرا وليالي في حالة انفعال تشبه الهذيان وكأنه في عالم غير هذا العالم •

والمجتمع اذ يطرح مشكلات جديدة يستفز العبقرية • فبؤس العمال في القرن الثامن عشر (أي بعد اكتشاف الآلة ونشوء المعامل والاحتكارات) دفع كارل ماركس الى وضع نظريته في الاشتراكية بعد تحليل دقيق لآلية رأس المال وبذلك فتح أمام الطبقات الشعبية طرقا لحل مشاكلها لم تكن مألوفة في السابق والعقل المجرد هو أداة الابداع الرئيسية في انشاء الرياضيات وتقدمها •

ولكن لو دققنا في كل هذه العوامل لوجدنا أن العقل أهمها وهو الذي يلعب الدور الرئيسي حتى في الابداع الفني وفي الموسيقى وسنرى عند دراستنا للمنطق وطرق العلوم البرهان على ذلك فالعقل هو الذي يمكن المبدع من أن يحيط بمجموع موضوعه فيدرس بعمق ودقة نظرياته ومذاهبه ويحدد فيها •

٣ ـ مراحله :

لكل عبقري طريقة ولكل فن أو علم خطواته الخاصة • واذا كان الابداع ابتكارا فلا يمكننا أن نحصره ضمن قواعد عقلية مقننة • ومع ذلك نستطيع أن نتبين بعض الخطوط العامة للابداع هي بمثابة شروط ويمكن تلخيصها في أربع مراحل :

أ ـ مرحلة التثقف : ان الثقافة العامة شرط ضروري للابداع ، لا في المجال الذي يبدع فيه العبقري بل في كل المجالات فلا يمكن للانسان أن يصبح مفكرا كبيرا الا اذا كان على اطلاع واسع بمختلف نواحي العلوم والفنون بالاضافة الى اختصاصه الذي يجب أن يكون ملما بكل أطرافه فالعبقرية نتيجة لجهد مستمر ومضن ولتأمل لا ينتهي •

ب ـ مرحلة الكمون : ان ثقافة المبدع وجهده لا يؤتيان أكلهما في الحال ، فكثيرا ما يمر العبقري بمرحلة جدب فيعتقد أن جهده لم يكن مجديا وأن تأمله كان عقيماً • في هذه المرحلة تنصهر المعلومات ؛ وتترتب وتتخمر في ذهنه • ولهذا قيل ان الابداع نتيجة للاشعور وهذا خطأ • فاللاشعور لا يبدع شيئا وانما ينضج

المعلومات ، فقد يقضي الطالب ساعات أمام مسألة يحاول حلها ثم يقنط فيتركها وفي اليوم التالي أو بعده وعلى فجأة يأتيه الحل فيهرع الى منضدته ويجربه فيجد أنه صحيح •

ج ـ **بذور الفكرة** : إن مثل الطالب هذا يدلنا على طبيعة الابداع ، فالفكرة الجديدة تظهر بعد تأمل طويل على شكل غير منتظر ولهذا قيل عن الابداع ، انه اشراق والهام وحدس • وهذا صحيح ولكن يجب ألا ننسى أن الاشراق والالهام والحدس أي الابتكار لا تحصل الا بعد تأمل طويل •

د ـ **تحقيق الفكرة الجديدة** : عندما يبدو الحل للطالب عليه أن يعرف هل كان صحيحا وعندما تبدو الفرضية للعالم عليه أن يجربهــا أي أن يرى أكانت تشرح الواقع أم لا • وسنرى عند دراستنا لطرق العلوم أمثلة على ذلك • فالذين راجعوا مسودات الادباء والفنانين (ومنها مالا يزال محفوظا في المكتبات الكبرى) يمكنهم تتبع نمو الفكرة الجديدة في رأس العبقري • عندما نقرأ نصا جميلا ونفهمه يخيل لنا أنه وضع في ساعات قليلة وهذا خطأ فالتحف الفنية نتيجة لعمل طويل وشاق ، ولهذا قيل عن أسلوب بعض كبار الكتاب انه من السهل الممتنع •

٤ ـ طبيعة الابداع :

يتبين مما تقدم ان الابداع ليس وحيا يهبط من عل ، بل هو نتيجة لعمل طويل شاق ، وأنه ليس من نتاج اللا شعور أو اللاوعي بل فيه يبلــغ الشعور أعلى مستوياته اذ يصبح انتباها حادا وتأملا طويلا • هناك أسطورة تروي أن نيوتون اكتشف قانون الجاذبية عندما كان نائما تحت شجرة التفاح فرأى تفاحة تسقط • ويكذب نيوتون نفسه هذه الاسطورة عندما يقول ما خلاصته : (لقد فكرت في المسألة وفتشت عنها بصبر لا ينضب وكانت النتائج التي أصل اليها أمامي باستمرار اتأمل فيها ولم يبد لي الحل الا على شكل بريق باهت اتضح تدريجا) •

وليس الابداع أيضا لا معقولا كما قيل أيضا وانما يحطم معقولية ضيقة يبدلها بمعقولية أوسع • فنظام بطليموس كانمعقولا بالنسبة للاقدمين فحطمه كوبرنيكوس عندما رأى أن الارض تدور حول الشمس لا العكس وأصبح بذلك فهمنا لنظام الفلك أكثر معقولية وأتى كبلر فوسع هــذه المعقولية أيضا ، وبعــده نيوتون وأنشتاين وهكذا ••

ان الابداع ثورة على الروتين والعطالة والجمود وقفزة نحو المستقبل • فالانسان بطبيعته وفي حالاته العادية كسول يألف بعض العادات فيراها بديهية • أما العبقري فيحطم العادات القديمة والاطر البالية ليبدلها بأخرى وبذلك يذلل صعوبات كانت تعترض تقدم المجتمع والعقل • فكارل ماركس في وضعه للنظام الاشتراكي حطم أطر النظام الرأسمالي الذي كان يعوق تطور المجتمع ويذل العامل في كرامته وانسانيته •

وبكلمة مختصرة فان العبقري المبدع يفتح أمام الانسان آفاقا لا يراها الانسان العادي وكأنه يقرأ المستقبل في الحاضر • ولهذا فأخص ما يميز الابداع هو •• سعة الافق وعمق النظرة والقدرة على النمو المستمر •

خلاصة

١ ــ **الذكــاء :** هو استنباط الحلول الجديدة لمواقف طارئة • وهو ايضا ادراك للعلائق بين الاشياء لا يدركها الانسان العادي • وينقسم الى نوعين كل منهما متصل بالآخر بصلة وثيقة : ذكاء عملي يضمن للانسان تلاؤما مع البيئة أعلى مستوى من التلاؤم العادي اذ يطور الطبيعة في مصلحة الانسان ، وذكاء نظري يبدو أكثر ما يبدو في المسائل المجردة كالرياضيات والفلسفة •

والذكاء محصلة لكل القوى النفسية ونتيجة لكل المعارف المكتسبة • ويصبح في أعلى درجاته مبدعا كالخيال •

٢ ــ **الابداع :** تطرح البيئة كما يطرح المجتمع على الانسان مشكلات عديدة تصبح بمثابة صعوبات يعسر على الانسان العادي حلها ، فالابداع هو الفكرة المبتكرة التي توجه نحو الحل وبالتالي العامل الاساسي في تقدم الانسانية • ويمتاز المبدع بقوى عقلية أبعد مرمى وأعمق غورا من قوى الانسانية العادية •

الابداع كالذكاء محصلة للقوى النفسية كلها وللمعارف المكتسبة ولكنه يتجلى على شكل فكرة جديدة وكأنه الهام يناقض أحيانا كل الفكر السابقة ، أو كأنه ثورة على الماضي وعلى ما خلفه في الفرد والمجتمع من عادات جامدة وعطالة •

تمارين

١ ــ سجل عددا من الاجوبة العفوية التي سمعتها من رفاقك أو مجتمعك والتي تعتقد أنها تدل على ذكاء وبين اذا أمكن نوع الذكاء الذي تنم عليه •

٢ ــ يقال ان الذكاء تحليل وتأليف (تركيب) ادرس وظيفة انشاء كتبتها أنت وكنت فيها مبرزا وبين كيف استفدت من معارفك السابقة لتكتب وظيفة مبتكرة •

٣ ــ ادرس بدقة مقطوعة شعرية تمتاز بقوة التصوير (البحتري ، ابن المعتز أو غيرهما) وبين معنى الابتكار في الصورة •

٤ ــ تستطيع أن تدرس بالطريقة نفسها قصيدة لابن الرومي وتبين الصورة الحركية فيها وكيف أنها حقا تبدو مبتكرة •

٥ ــ ادرس في مدينتك التطورات التي أدخلها استعمال الآلة (السيارة التراكتور) عليها •

أسئلة

١ — بين تأثير الانتباه في الذكاء •

٢ — اذكر مشكلتين أو أكثر من المشكلات التي يطرحها مجتمعنا العربي على مفكرنا وبين رأيك في حل هذه المشكلات •

٣ — اشرح هذا القول : الابداع ثورة على العطالة في الفرد والمجتمع •

٤ — يرى ديكارت أن العبقرية نتيجة للانتباه • ناقش هذا الرأي •

نص

لا بد اذاً أن نقبل من أننا نتخيل المجموع في شكل مصمم وان الابداع انما هو قلب المصمم الى صورة •

ان المبدع الذي يريد أن يوجد آلة ما يتخيل النتيجة التي يجب أن يحصل عليها .

والصورة المجردة لهذه النتيجة تبعث في ذهنه تباعا بالتلمس والتجريب الصورة العيانية لمختلف الحركات المؤلفة التي تحقق الحركة الكلية ، ثم الصور العيانية ومركبات القطع القادرة على أن تقوم بهذه الحركات الجزئية . وفي هذه اللحظة يكون الاختراع قد تم ، وانقلب التصور التخطيطي الى تصور ذي صور . والكاتب الذي يكتب رواية ، والمؤلف الدرامي الذي يخلق شخصيات وظروفا ، والموسيقي الذي يؤلف لحنا ، والشاعر الذي ينظم قصيدة ، كل أولئك يقوم في ذهنهم أول ما يقوم شيء بسيط مجرد ، ليس بذي جسم ، هو بالنسبة الى الموسيقي والشاعر عاطفة جديدة يجب أن تنتشر أصواتا أو صورا ، وهو بالنسبة الى الروائي والدرامي فكرة يجب أن تنتشر في حوادث ، وعاطفة فردية أو اجتماعية يجب أن تتجسد في شخصيات حية . فتراهم يعملون في مخطط للمجموع ، فمتى وصلوا الى صورة واحدة للعناصر ، حصلت النتيجة .

(« هنري برغسون » الطاقة الروحية ، ترجمة الدكتور سامي الدروبي ، الطبعة الثانية ص ١٩٥ ــ ١٦٠) .

الفصل الخامس

العقل

درسنا في الفصول السابقة عددا من القوى النفسية التي نكتسب بواسطتها المعرفة وهي :

الادراك : الذي نتعرف بواسطته الى العالم الخارجي كلا وأجزاءً ، في بنيته العامة وفي أشيائه .

الذاكرة : التي تستعيد الماضي وتربط بينه وبين الحاضر .

الخيال : الذي ينشيء عالما من الصور والاحاسيس والافكار تختلف درجة الابداع فيه وفقا لدقة الخيال وقوته .

الذكاء : الذي ينتقل بالانسان من التلاؤم الآلي مع البيئة الى التلاؤم المبتكر ويستنبط الحلول الجديدة للمواقف الطارئة أو للمشكلات النظرية المعقدة .

الابداع : وبه تنمو الانسانية وتتقدم .

أما الشعور والانتباه : فهما الشرط الاساسي للمعرفة .

ولكن القوة التي بواسطتها تبلغ المعرفة أعلى درجات الدقة واليقين وتصبح علما وحقيقة فهي العقل . وبالعقل وحده نبرهن على صحة ما نعرف .

وللعقل وظائف كثيرة أهمها : انشاء المفهوم ــ الحكم ــ البرهان . وسندرس كلا من هذه الوظائف في بحث مستقل .

البحث الاول ــ المفهوم ــ التجريد والتعميم

١ ــ تعريف المفهوم :

عندما أقول (كلب ، حيوان ، ذوات الثدي) أو (جبل ، واد ، مدينة) أو

(أبيض ، أحمر ، صوت) أو (طالب ، مدرسة ، مدرس) أو (العدد أربعة ، معادلة رياضية ، قانون فيزيائي) أو (الخير ، العدالة ، المحبة) الخ •• فأنا أدل على مفاهيم مجردة أو فكرة عامة لان كلمة (طالب) مثلا لا تدل على الطالب سمير أو الطالب عمر أو هذا الطالب أو ذاك وانما على كل طالب في كل مدرسة أينما وأنى كانت ، وكذلك كلمة (شجرة) وكلمة (عدالة) وهكذا •• فالمفهوم هو فكرة عامة لانه يشير الى عموم الاشياء لانه يشير الى كلية الاشياء • فهو مجرد أي منفصل لا أراه في العالم المحسوس • فالمدركات حسية لانني أرى هذا الكتاب بعينه (كتاب الفلسفة للصف الثالث الثانوي) والذكريات يقال عنها أيضا انها حسية أو مشخصة لاني أتذكر كتابا بعينه ، والصور والاخيلة حسية أو مشخصة كذلك • أما المفاهيم فمجردة أي مفصولة عن الاشياء الواقعية والتي يقال عنها عموما محسوسات •

٢ ـ المنشأ العقلي للمفهوم :

بعد أن عرفنا المفهوم ، علينا أن نبين كيف يكونه العقل • للمفهوم منشآن : الاول عقلي والثاني واقعي • فلنتكلم أولا على المنشأ العقلي • فهو من الوجهة العملية نتيجة لعمليتين : التجريد والتعميم •

أ ـ التجريد : أرى ورقة وخشبة وقطعة نسيج وحائطا الخ •• وأوازن بين هذه الاشياء المختلفة فأجد فيها كلها صفة مشتركة هي البياض مثلا ، فأعزلها عن غيرها (أجردها) ، وأعتبرها بذاتها فتحصل عندي فكرة هي (البياض) ، بوسعي أيضا أن أجرد من ذات الاشياء صفات أخرى كالوزن والابعاد وغيرها • فالتجريد اذا عزل صفة مشتركة بين عدة أشياء مشخصة واعتبارها بذاتها ، أو عزل عنصر من عناصر عدة أشياء واعتباره بذاته واهمال ما تبقى •

هذه العملية لا يمكن أن يقوم بها الا العقل • فبذاكرتي أستعيد صورة نهر بردى أو نهر العاصي ، أما عقلي فينتقل من هاتين الصورتين وغيرهما الى مفهوم النهر •

ب ـ التعميم : ان فكرة النهر التي جردتها من رؤيتي لنهر العاصي ونهر بردى وغيرهما من أنهار سورية لا تنطبق فقط على الانهار بل تنطبق على أنهار آسية وافريقية وامريكة التي لم أرها وعلى أنهار قد أكون سمعت بها • وهذا هو التعميم

ان التجريد نتيجة عقلية لتجربة يقوم به الانسان • أما التعميم فيتخطى حدود التجربة الراهنة الى كل تجربة ممكنة • فعندما أعرف قانون سقوط الاجسام أعرف في الوقت نفسه أنه ينطبق على كل الاجسام التي سقطت في الماضي وستسقط في المستقبل القريب أو البعيد •

ان التجريد والتعميم هما قوام العقل النظري فبهما يستقل العقل عن الواقع كله اذ يكون لذاته عالما خاصا قوامه المجردات •

ج ـ صفتا المفهوم : للمفهوم خاصتان أساسيتان هما : التضمن والشمول ، التضمن يدل على خصائص المفهوم والشمول على عدد الاشياء التي ينطبق عليها • فتضمن مفهوم الجبل هو أنه مرتفع ذو علو معين ، أما شموله فهو كل الجبال • وتضمن مفهوم المثلث هو مجموعة خصائصه (سطح مستو محاط بثلاثة أضلاع متقاطعة مثنى مثنى) أما شموله ، فأنواع المثلثات كلها (متساوي الاضلاع ، قائم الزاوية الخ ••) •

٣ ـ المنشأ الواقعي للمفهوم :

المفهوم مجرد نظري لا وجود له (وان كانت عناصره مستمدة من الواقع) الا في الذهن الذي ينشئه • ولكن عناصر المفهوم مستمدة بالاصل من الواقع وهو في تجاوب مستمر مع هذا الواقع شأنه في ذلك شأن كل الحالات النفسية (المدركات ، الذكريات الخ ••) فهي بآن واحد مرتبطة بالواقع ومستقلة عنه • ولو لم تكن للعقل هذه الخاصة (الاتصال بالواقع والاستقلال عنه) لما كان باستطاعته أن يكيف التلاؤم وينميه وينشيء العلم النظري ولهذا كان علينا أن نتكلم على منشأ واقعي، تجريبي ـ للمفهوم ـ ويتجلى في الامور التالية :

١ ـ التجريد العملي : لنلاحظ على سبيل المثال نشاط الطفل • تبدو الاشياء للطفل أول ما تبدو ككل مغمض تمتزج أشياؤه بعضها ببعضها الآخر ثم يعزل منها الطفل تبعا لاهتماماته وبالاستناد الى حركاته ما هو بحاجة اليه كالحليب عندما يكون جائعا والماء عندما يكون عطشا واللعبة عندما يريد أن يلهو الخ •• وهذه الاشياء وان كانت تثير فيه أحاسيس مختلفة فرد فعله على كل منها واحد فهو عندما يكون عطشا مثلا يفتح فمه ويبكي ويشير الى المكان الذي يعتقد أن فيه الماء•

وهذه الاستجابة الموحدة تعزل شيئا ما عن مجموعة الاشياء المحيطة به فكأنها تجريد عملي • ثم يألف الطفل مجموعة الاشياء التي تعنيه فتصبح حركاته تجاهها عادات• فالعادة عند الطفل وعند الراشد بمثابة تجريد عملي وهكذا تترتب الاشياء أو تتمايز وتتصف في ذهن الطفل بالاستناد الى موقفه منها فله موقف معين من الاشياء التي يحب وموقف آخر من الاشياء التي يكره •

٢ ــ **التجربة بشكل عام** : ان تجربتنا العادية تساعدنا أيضا على الاشياء فنحن مثلا نعرف (الظلم) قبل أن ندرك معناه كما نعرف (العدالة) أيضا قبل أن نعرف معناها • فالطالب عندما ينال العلامة التي يستحق يحكم بأن التصحيح عادل • والانسان الذي يشتري سلعة بأغلى من ثمنها الطبيعي يحكم بأن التاجر قد غشه • على هذا الشكل نميز بين الصدق والكذب ، والحب والكراهية الخ •• فتكون لدينا المعاني العامة بشكل يكاد يكون عفويا •

٣ ــ **اللغــة** : اللغة أداة تجريد وتصنيف ممتازة فعندما تعلم الام طفلها اسم اللعبة (هذه سيارة) يتعلم كيف يميز بينها وبين بقية الاشياء التي في واجهة البائع وهكذا قل في بقية الامور التي يتعلمها الطفل ، النهر ، الشجرة ، الحبل ، والطفل أيضا يصنف ، فكلمة (كوكو) في لغة الاطفال عندنا تشير الى كل الطيور والطالب في المدرسة يتعلم بالتجريد عندما يتعلم مثلا رسم الخرائط او المخططات او تقسيم التاريخ الى عصور الخ •

٤ ــ **العقل** : ان العقل هو أداة للتجريد والتعميم حقيقية ولولاه لما تميــز الانسان من الحيوان : فوحدة رد الفعل عند الطفل التي أشرنا اليها موجــودة عند الحيــوان أيضا • ونلاحظ بوضوح تدرج العقل في التجريد اذا تأملنــا في الرياضيــات : فالطفــل يتعلم العــد والجمع والطــرح بواسطة الاشيــاء المحسوسة ، ٣ فرنــكات + ٤ فرنــكات = ٧ فرنكات • ثم نعلمــه الصيغة المجردة ٣ + ٤ = ٧ وفي الجبر نقوم بعملية التجريد اذ نستعيض عن الارقام بالرموز (الاحرف الابجدية $\sqrt{\quad} \leq 8$ الخ ••) والاشكال الهندسية عن الاشكال الواقعية •

٤ ــ دور المفهوم في حياتنا :

ان العلوم والمعارف (الرياضيات ، الفيزياء ، الجغرافية النقد الادبي ، الفلسفة •

الخ •) كلها نظرية وكلها نتيجة تجريد وتعميم يقوم بهما العقل فهي عبارة عن منظومة مفاهيم أو مجموعة مفهيم مترابطة منطقية • ان التفكير ايضا هو نظري أي تحليل وتأليف (تركيب) لمفاهيم •

فكلمة (علوم عملية) كلمة مضللة فلا يوجد علم عملي وانما للعلم تطبيقات عملية وكلما تقدم العلم نظريا كانت نتائجه العملية أكبر وأخطر وانما على العلم أن يكون لذاته (وقبل كل عمل) رصيدا نظريا كبيرا حتى يتمكن من التأثير في حياتنا الواقعية • ان التقنية التي بدلت في هذه السنوات وجودنا الواقعي رأسا على عقب نتيجة للفيزياء الرياضية في شكلها الراهن نتيجة للتقدم المذهل الذي طرأ على الرياضيات منذ أواخر القرن التاسع عشر الى أيامنا • والعالم الرياضي ينشيء معادلاته مستقلا كل الاستقلال عن كل واقع عن كل تجربة واقعية فالهندسة الاقليدية التي سنشير اليها في الباب الثاني من هذا الكتاب لا تستند الى أي واقع مشخص• فعالم العقل عالم مفاهيم مستقل عن الواقع الحسي الذي نعيش فيه •

ان الطالب يعرف بتجربته عملية تحليل المفاهيم والتأليف بينها • فحل مسألة رياضية تحليل وتركيب نظريان وما الشكل الهندسي الذي يرسمه الطالب الا تدليل على صحة تحليله ونقطة استناد حسية تساعده على متابعة محاكمته النظرية وكذلك كتابة وظيفة فلسفية فتحليل الادراك أو الذاكرة تحليل نظري ندلل على صحته بأمثلة واقعية •

البحث الثاني ـ الحكم

١ ـ تعريف الحكم :

عندما أقول (الثلج أبيض) أو (سورية قطر من الاقطار العربية) أو (العلم مفيد) ، (المربع سطح مؤلف من أربع أضلاع متساوية ومستقيمة ومتقاطعة) فاني أطلق مجموعة أحكام • ويقوم الحكم منهما طال أو قصر على ربط محمول الى موضوع أو في اللغة العادية صفة الى موصوف ، فالثلج موضوع والابيض محمول ، والمربع موضوع والخصائص التي تميزه محمول • في اللغات الغربية يتوسط فعل الكون بين الموضوع والمحمول • أما في اللغة العربية فالعبارات التي

ذكرنا جمل اسمية ، والجمل الاسمية كما هو معروف تتألف من مبتدأ وخبر .

ونميز في الحكم بين :

١ ـ العملية العقلية التي نربط بها الموضوع على المحمول وهي عملية منطقية شكلية .

٢ ـ مضمون الحكم أو محتواه ويطلق عليه اسم (قضية)

٢ ـ الحكم والمفهوم :

يتألف الحكم مهما طال أو قصر من عبارتين (الموضوع والمحمول) أو بتعبير أصح كما يقول المناطقة من حدين . فالحكم علاقة وتتجلى الفعالية العقلية في التأليف أو الربط بين الحدين . فالحكم في تعريفه النهائي **علاقة اثبات أو نفي** .

أما المفهوم فكلمة مفرغة مجردة كما رأينا . ولكن لو تأملنا في المفهوم وفي نشوئه (الذي أشرنا اليه سابقا) لوجدنا انه مجمع أحكام عديدة أو نتيجة لهـذه الاحكام التي تبقى ضمنية فيه . فعندما أذكر مفهوم (الطالب) اذكر معه ضمنا مجموعة أحكام ايجابية (الطالب ينتسب الى مدرسة ـ الطالب غير تاجر ـ الطالب غير فلاح الخ) .

٣ ـ الحكم في واقعه النفسي أو منشأ الحكم :

لو تأملنا نصا نطالعه في أي كتاب شئنا أو لو تأملنا في حديثنا العادي لامكننا أن نحلله الى مجموعة أحكام . ولكن هذه الاحكام لا تتخذ الا في حالات نادرة شكلا منطقيا أي شكل علاقة بين موضوع ومحمول . فكثيرا ما نطلق حكما باشارة واحدة كأن اشيح بوجهي عن الشيء الذي ارفض أو أقتصر في الاثبات على كلمة نعم وفي النفي على كلمة لا ، كأن يسألني أحدهم : (الجـوّ جميل ؟) فأقـول : (نعم) . وأحيانا يقتصر حكمنا على السلوك كأن أخرج الى النزهة مع صديق فأحكم ضمنا أن الجوّ جميل وان النزهة مفيدة .

والجملة الفعلية هي أيضا حكم مؤلف من موضوع ومحمول وان لم تأخذ هذا الشكل . فعندما نقول (أتى الطالب الى المدرسة) نستطيع أن نقول أيضا الطالب (موضوع) أتى الى المدرسة (محمول) .

أ ـ الوجهة المنطقية والوجهة النفسية في الحكم : ان الملاحظات السابقة تدفعنا الى التمييز بين الحكم من الوجهة منطقية والحكم من الوجهة النفسية فعندما يأخذ شكل علاقة صريحة بين موضوع ومحمول (العلم مفيد) تقول عنه انه أخذ الشكل المنطقي واذا لم يأخذه أي اذا أتى ضمنا أو صراحة في حديث الانسان وسلوكه تقول عنه انه (نفسي) لانه من واقع الحياة النفسية • وفي الواقع النفسي أو العادي كثيرا ما يكون الحكم ضمنيا كأن تصمت فيفهم السامع أنك غير راض عما يقول أو كأن يبعد الطفل يده عن النار فيحكم أنها محرقة وأحيانا يأخذ الحكم في واقعنا النفسي شكلا صريحا •

ويفترض الحكم المنطقي شرطين صريحين لا يحققهما الحكم في واقعه العادي •

١ ـ الشكل المثالي : ربط محمول الى موضوع سلبا أو ايجابيا كما قلنا •

٢ ـ عدم التناقض بين الحدين فقولنا (دائرة مربعة) قول متناقض مع ذاته وسندرس هذا الموضوع عند بحثنا للمنطق •

ب ـ من الحكم الذاتي الى الحكم الموضوعي : يجب أن يكون الحكم موضوعيا أي دالا على علاقة قائمة بين الاشياء مهما كانت وجهة نظرنا الشخصية فيها فقولنا (العلم مفيد) يشير الى حقيقة قائمة بذاتها •

ولكن الواقع يدلنا على أن هناك أحكاما ليست لها هذه الصفة الموضوعية فالطفل يعجز عن اطلاق حكم موضوعي وكأنه هو الموضوع في كل الاحكام لانه يحكم على الاشياء المحيطة به بالنسبة لانفعالاته أي للذاته وآلامه فهو مثلا لا يدرك أن الحليب أبيض وانما يدرك حاجته اليه عندما يكون جائعا •

وكثيرا ما يتصرف الراشد كما يتصرف الطفل فعندما نركب السيارة ونقول انها بطيئة الحركة فمعناه أنها لا تعجل بالمقدار الذي تقتضيه مصلحتنا وعندما نقول : الاسعار غالية فمعناه أنها غير متناسبة مع دخلنا •

ويصبح الحكم موضوعيا عندما نتحرر من أهوائنا ورغباتنا ومصالحنا وأنانياتنا لنرى الاشياء كما هي بذاتها •

وندرك مرتبة الحكم الموضوعي في المعرفة التي هي نتيجة للعقل والعلم وهو أعلى درجات الموضوعية •

ج ـ الحكم الموضوعي نتيجة لتحليل وتركيب عقليين : درسنا دور التحليل

والتركيب (التأليف) الاساسي في انشاء الشيء ومفهومه (بحث الادراك) كما أشرنا أيضا الى دوره في عمليات نفسية أخرى • والواقع ، كما سنرى في بحوث أخرى أن التحليل والادراك من عمليات العقل الاساسية أي من العمليات التي يستخدمها العقل دوما وفي كل فعالياته • ويبدو دوره الاساسي في انشاء المفهوم كما يبدو في انشاء الحكم •

قلنا ان الانسان يبدأ بالعمل ، والعمل موقف أو سلوك نتخذه من الاشياء ونعبر عنه بحركاتنا ، فالحركة أو الموقف أو السلوك حكم ضمني • فما الذي ينقل الحكم الضمني الى حكم صريح أو معبر عنه ؟ هو العقل الذي يحلله أي يسوّغه أو يثبت صحته • لنلاحظ مثلا قولنا (العلم مفيد) فنحن لا نطلقه الا بمناسبة معينة كأن نتناقش حول تعليم أبناء الشعب ، فيقول أحدهم مثلا ان تعليمهم يحرم الارض اليد العاملة • فنتيجة التجربة أثبتت العكس ، لان الانتاج الزراعي يكثر مردوده في الامم المتحضرة لانها علمت أبناء الشعب • من هذا التحليل ومن غيره نخلص الى حكم عام نطلقه دون تحفظ فنقول (العلم مفيد) •

من هذا المثال يبدو لنا بوضوح أن الذي يدفع العقل الى التحليل والتركيب أي الى تسويغ الاحكام هو النقد الذي نمارسه على انفسنا لنفهم سلوكنا وأفكارنا أو النقد الذي يمارسه المجتمع تجاهنا اذ يطلب منا أن نقوم ببيان أسباب سلوكنا وحقيقة أحكامنا •

ثم ان الحكم علاقة بين حدين • فالولد يقول ٢ + ٣ = ٥ كالطالب الذي يحل معادلة جبرية لا يفهم مايقول الا اذا حلل طرفي المعادلة •

ولهذا لا يستطيع الانسان أن يقوم بعملية الحكم الا اذا تكامل عقله ان الطفل مهما كان ذكيا يعجز عن صياغة الحكم صياغة عقلية • وكذلك الحيوان •

والعلم مجموعة أحكام ثبتت صحتها بالتجربة والمحاكمة العقلية كما سنرى في الباب الثاني من هذا الكتاب •

٤ ـ الاعتقاد :

يتعلم الطالب في كل مراحل دراسته مواد كثيرة (التاريخ ـ الجغرافية ـ التربية الوطنية ـ الفيزياء الخ •••) كما يقتبس من المجتمع معلومات كثيره (أهله، رفاقه ، الصحيفة ، الاذاعة ، الرأي العام الخ ••) • وهذه العلوم والمعارف أحكام

يبدأ بتصديقها لانها صادرة عن شخص يعتقد أنهم أعلم منه أو لانها صادرة عن سلطة (الأب ، من هم أكبر منه سنا ، المعلم ، الرأي العام الخ ...) تفرض ذاتها عليه لانها أعلى منه . ولكن عندما تتفتح فيه روح الانتقاد بتأثير نمو عقله أو بتأثير المناقشات ، عليه أن يتأكد من صحة معلوماته . ان الانتقاد مرحلة عليا من مراحل النمو العقلي . ولا نقصد بكلمة (انتقاد) الشك والتهديم أو الريبة وانما التثبت من صحة الاحكام والمعارف .

فقوة الحكم تلازمها قوة أخرى نطلق عليها اسم (اعتقاد) ونأخذ هنا كلمة اعتقاد بمعناه الواسع أي اقرارنا بصحة أحكامنا ومعلوماتنا . والاعتقاد على أنواع ودرجات علينا أن نحللها .

ان الاعتقاد من طبيعة الحياة أي أنه ملازم لسلوكنا العملي والنظري . أما الشك فيأتي في مرحلة متأخرة ولو كان الانسان شكاكاً بطبيعته لتهدمت الحياة ولكن الاعتقاد لا يصبح مستقيما الا اذا كان نتيجة تأمل عقلي دقيق أي الا اذا انتقل من شكله العفوي الى شكله العقلي . فعلينا الآن أن ندرس هذا التطور الاساسي .

أ ـ **الاعتقاد العفوي** : وهو الذي لا تأثير للعقل في تكوينه . ونجده عند :

١ ـ **الطفل** : فالحقيقة بالنسبة للطفل هي كل ما يقع تحت حواسه وكل ما يقال له فاذا سأل عن شيء ما يجهله وأجابته أمه بكلمة مبهمة (هذا آلة) حصلت عنده قناعة بصحة الجواب ، كما انه لا يميز بين الخيال والحقيقة فالصورة التي تتراءى له يعتقد انها موجودة فعلا . ولا يميز أيضا بين المنام وحالة اليقظة .

٢ ـ **الجماهير الهائجة** : فهي التي تصدق كل الشائعات مهما كان نوعها ومهما خالفت المنطق . ونلاحظ ذلك أيام الحروب والاضرابات .

٣ ـ **المصابون بالأمراض النفسية** : كمرض (الوهم) الذي أشرنا اليه عند بحث الادراك .

ب ـ **الاعتقاد في الاحوال العادية والعوامل التي تكونه** : يعتقد الانسان العامي (وكلنا عوام بمعنى ما ، العالم والجاهل) بأمور كثيرة تنشأ بتأثير عوامل كثيرة أهمها :

١ ـ **العامل الاجتماعي** : فالانسان يأخذ عفويا بكل معتقدات وآراء مجتمعه . فكثيرا ما نجد مثقفين من الطبقة الراقية فكريا ، كثيرا ما نجد علماء يعتقدون بالسحر

والتعاويذ وغير ذلك من الشعوذات لان مجتمعهم يعتقد بها • وللدعاية والاعلام في أيامنا أثر كبير جدا في تكوين الرأي العام ويستخدم المجتمع الضغط المعنوي لكي ينشيء أعضاءه على صورته ومثاله ، فمن وسائله التكرار والهزء الخ •

٢ ـ **العاطفة والاهتمام :** كثيرا ما نعتقد بما يقال لنا اذا كان هذا القول يتفق مع رغباتنا وعواطفنا أو يداعب أهواءنا وميولنا • فالمدمن على الخمرة يرى فيهـا دواء شافيا لبعض الامراض • واذا قيل لنا عن شخص نكرهه انه قام بعمل مخجل فسرعان ما نصدق هذا القول •

٣ ـ **العادة والتكرار :** الانسان بطبعه كسول فالعادات والتقاليد التي أخذهـا عن مجتمعه وكررها تصبح عنده بمثابة معتقدات لا يتطرق اليها الشك • ولهذا نجد تقاليد الاجنبي غير معقولة ، والاجنبي يقابلنا بالمثل •

ج ـ **الاعتقاد العقلي :** وفيه يتحد الاعتقاد بالعقل اذ تقبل الحقيقة بنتيجة البرهان• كان الناس في السابق يعتقدون أن حق الملك في ادارة شؤون الوطن وحقه بالتسلط على رعيته الهي لا يناقش فيه • ولما ظهر علماء بينوا بالتحليل الاجتماعي والتاريخي أن هذا الاعتقاد وهم أو أن سلطة الملك الاستبدادية مغتصبة لا يوجد ما يسوّغها منطقيا دفعوا الناس الى ابدال النظام الملكي بنظام جمهوري • وكذلك حق الاقطاعي فبعد أن كان مطلقا تبخر تحت تأثير النظريات الاشتراكية التي بينت أن الظلم منشؤه وان عطالة المجتمع هي التي مكنته من الاستمرار •

مثال آخر ان الطالب يعتقد بصحة العلم أول ما يعتقد لان استاذه يلقنه اياه • ولكن عندما يناقش الطالب الاستاذ يصبح الاعتقاد حكما عقليا • وكلنا نعتقد بصحة العلم لاننا نرى نتائجه وتطبيقاته • ولكن لا يصبح هذا الاعتقاد عقليا الا اذا فهمنا الاسس التي يشاد عليها العلم •

وبكلمة مختصرة فان الاعتقاد العقلي يتجلى أكثر ما يتجلى في العلم واذا كنا سندرس الاسس المنطقية والفلسفية للعلم في البابين الثاني والثالث من هذا الكتاب فلكي يتمكن الطالب من الحكم بنفسه على قيمة العلوم والمعارف التي اكتسبها خلال دراسته •

البحث الثالث ـ اللغـة

١ ـ اللغة والفكر :

قد يظن المرء أول وهلة أن الادراكات والانفعالات والافكار وغيرها من الحالات النفسية تتكون أولا ثم يعبر عنها الانسان باللغة ، وهذا خطأ ، كما قد يظن أن اللغة شكل مضمونه المعاني والصور ، وهذا خطأ أيضا ، فاللغة والفكر شي واحد، والتمييز بين الشكل والمضمون أو بين المبنى والمعنى مصطنع لا وجود له في الواقع، فالطفل لا يدرك الاشياء الخارجية الا عندما يعلمه أهله أسماءها ولا يعرف انفعالاته الا عندما تقول له أمه مثلا : أنت مسرور أو أنت متعب ، وكذلك الراشد ، فالطالب لا يتعلم الدرس الا عندما يذاكره المدرس فيه ، صحيح أن هناك أفكارا ضمنية وحالات نفسية مغمضة ولكن هذه الافكار وهذه الحالات تبقى مبهمة غائمة مادمنا لم نميزها بالتعبير عنها ،

وهذا هو معنى كلمة (بيان) العربية الجميلة فالبيان هو الفكر الذي تتمكن من صياغته صياغة ما ان يقرؤها أو يسمعها غيرنا حتى يفهمها فهما كاملا ، واللغة هي الثقافة نفسها ولهذا تمتاز الثقافات بعضها عن بعضها الآخر بدقة لغة كل منها وقدرتها على التعبير عن مختلف المعاني ، كان العرب يعتقدون أن ثقافتهم أكمل الثقافات لان اللغة العربية في نظرهم أفصح اللغات أي أكملها بيانا بعكس اللغة الاعجمية أي الاجنبية ،

فليست اللغة اذا أداة يستخدمها الفكر أو وسيلة يستخدمها الانسان بل هي الفكر ذاته عندما يبلغ درجة كبيرة من الوضوح والتماسك ، وهي النفس ذاتها عندما تبلغ درجة عالية من النضج فتفصح عن أحوالها ،

٢ ـ أنواع التعبير :

يستعمل الانسان وسائل عديدة للتعبير عن حالاته النفسية وأفكاره أهمها :

أ ـ اللغة الانفعالية ولغة العواطف (١) : ان للانفعالات والعواطف والهيجانات تعبيرات تظهر على حركاتنا وتبدو بصورة خاصة على أسارير الوجه ، وهي وان كانت غامضة بعض الشيء تعرف أحيانا ففي الذعر مثلا نشيح بأنظارنا عن الشيء

(١) راجع للتوسع في هذا الموضوع بحث الهيجان في كتاب (العمل) .

الذي أخافنا ونستعد للهرب وفي حالة الفرح تنفرج أسارير الوجه . ومعلوم أن الاحمرار دليل الخجل وهكذا الخ ..

ب ـ **الاشارات والرموز :** ويستعمل الانسان للتعبير عن حالاته النفسية الاشارات والرموز ، فالمعلم يضع السبابة على فمه ليأمر الطلاب بالسكوت ، وللعلوم رموزها (الرموز الكيماوية والجبرية) كما أن للدول رموزها فالنسر فاردا جناحيه رمز الجمهورية العربية السورية. وللفرق العسكرية شارات وللدول أعلامها .

ج ـ **لغة الفنون :** لكل من الفنون لغته فالرسم يستعمل الخطوط والالوان والموسيقا التي تتنوع بتنوع الآلات والمدرجات الموسيقية . ولكن ما من شك في أن الكلام هو أكثر أنواع التعبير ابانة اذ أنه يفصح بآن واحد عن الافكار والعواطف في أدق تلوناتها . وأكمل الكلام ابانة هو الشعر وفيه يبلغ الابداع الفني أعلى مراتبه ، وهو في الوقت نفسه لون (صورة) وصوت (جرس) ومعنى هذا ما أدركه العرب فجعلوا من الشعر أداة التعبير الاولى عن ثقافتهم .

د ـ **لغة العلوم :** وهي أكثر اللغات تجريدا لا بل هي التجريد بالذات . فالعلم يستخدم المفهوم أولا وعندما يبلغ أعلى درجات الكمال يستخدم الرياضيات ولهذا كان أكمل العلوم الرياضيات تليها الفيزياء الرياضية ومن ثم بقية العلوم . ذلك أن العلم يوضح العلائق الثابتة بين الموجودات فاذا مادرس العواطف مثلا يحولها الى مفاهيم مجردة وربما الى معادلات رياضية .

٣ ـ اللغة ظاهرة اجتماعية

رأينا في أبحاثنا السابقة أن المجتمع بعد أساسي من أبعاد الوظائف النفسية . ويبدو تأثير المجتمع في حياتنا النفسية وفي أفكارنا أكثر ما يبدو في اللغة . فاذا كان الانسان صورة عن مجتمعه الكبير (الأمة) أو عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها (قطره ، حرفته حتى أيضا حيه أو قريته ، أسرته) ، فلأن لغة هذا المجتمع هي التي كونت عاداته وتقاليده وحركاته وأفكاره وقيمه حتى انفعالاته . فنحن ننظر الى الامور كلها بمنظار مجتمعنا . وان كان للعربي لغة تلون مشاعره وأفكاره بلونها وتميزه من بقية الشعوب فللعامل العربي لغة خاصة تعبر عن اهتماماته الخاصة ومصالحه ، وكذلك هي الحال بالنسبة الى الطالب والفلاح الخ ..

ان للحيوان سلوكا تجاه الاشياء ونه انفعالات يعبر عنها ولكن ليس له لغة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة اذ هناك تجمعات حيوانية لا جماعات •

والطفل في الاشهر الاولى من حياته كذلك فهو يعبر عن حالاته النفسية بالاشارات والحركات وبما يسميه علماء النفس (الكلمة ـ الجملة) ذلك ان الطفل يندمج في مجتمعه تدريجا • ومقياس اندماجه في المجتمع هو درجة نموه في تعلم اللغة •

ذلك أن اللغة حوار أي علاقة مع الآخرين ولا يمكن أن تنشأ الا اذا تكونت العلاقة حتى عندما يخاطب المرء نفسه في حوار منفرد أو وحيد الطرف (هذا اذا لم يكن مصابا بمرض عقلي) فهو يتصور في ذهنه صنوا يحاوره ويرد عليه •

٤ ـ وظيفة اللغة :

اللغة ـ شأنها في ذلك شأن الوظائف العالية كلها ـ عمل وفكر بآن واحد •

١ ـ عمل أو سلوك : لأننا بواسطتها نحاول التأثير على غيرنا اذ ندفعه في هذا الاتجاه أو ذاك • فالخطيب والزعيم السياسي والمربي والصحفي الخ ••• كل هؤلاء لا يتكلمون أو يكتبون الا لتحويل سلوك المجتمع (صغيرا كان أو كبيرا) من اتجاه الى اتجاه آخر يعتقدون أنه أصح من الاول • ولا توجد كتابة لمجرد الكتابة الا في التمارين المدرسية ، ومع ذلك فهذه غايتها النجاح في الامتحان ومن ثم الوظيفة• وعندما نتأمل تأملا شخصيا في أفكارنا فلكي نفهمها ونقوم بهذا الفهم سلوكنا •

٢ ـ فكر : لان اللغة هي التي توضح أفكارنا وتعمقها • فكثيرا ما نعتقد أننا نفهم موضوعا لانا درسناه بدقة ولكن عندما نسأل عن هـذا الموضوع أي عندما نجد ذواتنا مضطرين للتعبير عنه تعبيرا متماسكا نلاحظ أن في فهمنا فجوات وأفكارا مغمضة تحتاج الى مزيد من الايضاح وهذا هو هدف الوظائف المدرسية فهي الوسيلة الوحيدة التي تمكننا لا من فهم معارفنا فقط وانما تمكننا أيضا من امتلاكها بحيث تصبح طيعة نستخدمها في الظرف المناسب والذين يمارسون حرفة الكتابة يعرفون بالتجربة أنهم لا يفهمون فكرتهم الا عندما يحاولون التعبير عنهـا وكثيرا ما يطرأ على أفكارنا أيضا تبدلات جذرية هامة عندما نكتبها •

وبكلمة مختصرة فنحن نتعرف الى أفكارنا وحالاتنا النفسية باللغة • فاللغة لا تنفصل عن الفكر •

٥ ــ عثرات اللغة :

اذا كانت اللغة لا تنفصل عن الفكر فلا يمكن التوحيد بينهما توحيدا مطلقا • الفكر قبل اللغة ضمني ومغمض واللغة بلا فكر ثرثرة • لنلاحظ المثال التالي : كثيرا ما يحدث في النقاش أن يبدي الانسان رأيا لم ينضجه ويندفع في الدفاع عنه وكأن الكلمات هي التي تسيطر عليه لا هو الذي يسيطر على الكلمات ويلاحظ بعد النقاش أنه اتخذ موقفا لم يكن يقصده وأبدى آراء لم يكن يتعمدها • وهذا ما يحدث للخطيب أحيانا • هذا المثال عكس المثال السابق عن الطالب الذي أشرنا اليه في الفقرة السابقة • فعلى الانسان أن يتجنب الشطط الكلامي بواسطة التفكير الدقيق وبالسيطرة على أفكاره ، كما أن عليه أن يستوضح أفكاره اذ يحاول التعبير عنها تعبيرا دقيقا •

٦ ــ أمراض اللغة :

اللغة وظيفة عالية من وظائف النفس ولهذا تتعرض لامراض كثيرة عندما يضعف جهازنا العصبي أو تضعف قوانا العقلية • وقد أشرنا عند كلامنا عن الذاكرة الى واحد من أهم هذه الامراض وهو الحبسة Aphasie ومن أنواعها :

١ ــ الحبسة اللفظية حيث يعسر على المريض استعادة الكلمات فتختل عبارته •

٢ ــ الحبسة الاسمية وفيها يعجز المريض عن استخدام الاسماء لعجزه عن فهم معناها •

٣ ــ الحبسة النحوية وهو مرض يصيب استخدام قواعد اللغة •

٤ ــ الحبسة الدلالية وهي مرض خطير لان المريض يعجز فيه عن فهم قصد المتكلم أو معنى النص الذي يقرأ •

البحث الرابع ــ المحاكمة والعقل

المحاكمة (ويقال أيضا الاستدلال والبرهان) مجموعة من القضايا مرتبة في مقدمات تحصل عنها نتيجة • فقولنا (ان حجم الغاز يتناسب مع الضغط تناسبا عكسيا) قانون تدرس برهنته في كتب الفيزياء ، محاكمة • وقولنا أيضا (عدد زوايا المثلث مساو لقائمتين) نظرية تبرهن عنها الهندسة فتصبح محاكمة • وكذلك قولنا (كل انسان فان ــ سقراط انسان ــ سقراط فان ــ) محاكمة يطلق عليها



في المنطق الصوري اسم (قياس) سندرسه في القسم الثاني من الباب الثاني في هذا الكتاب •

ومع أن دراسة المحاكمة تلي مباشرة دراسة المفهوم والحكم فسنرجئها الى الباب الثاني لنبين كيف يتم الانتقال في دراسة المعرفة من الوجه النفسي الى الوجه المنطقي مقتصرين في هذا البحث على دراسة العقل •

وسندرس العقل من وجهات نظر ثلاث تبين لنا طبيعته :

١ ـ العقل في عملياته :

يسهم العقل في كل العمليات النفسيه تقريبا حتى ليذهب بعضهم الى أن الغريزة نفسها (وهي سلوك آلي أعمى) تتضمن قبسا منه ينير الطريق أمامها عندما تعترضها صعوبات مفاجئة • وهو مضمر أو في حالة كمون عند الطفل ، وواضح بيّن عند الراشد يسهم اسهاما في المعرفة وفي العمل •

أ ـ العقل والقوى العارفة : درسنا في البحوث السابقة القوى النفسية التي تسهم في انشاء المعرفة (الادراك ، الذاكرة ، التخيل الخ) فرأينا أن هذه القوى تتضمن جانبين : جانبا عمليا هو التلاؤم مع البيئة ، وجانبا نظريا هو المعرفة نفسها ، ومعرفة الماضي في الذاكرة ومعرفة الاشياء الماثلة أمامنا في الادراك الخ ، فتبين لنا أن التلاؤم لا يتكامل وأن المعرفة لا تتضح الا اذا استندا الى العقل • فالعلم (وهو أعلى درجات المعرفة) يبدل البيئة الخارجية ويسخرها كذلك لمصلحة الانسان ، والعلم أيضا هو الذي يطلعنا على أدق ما في الموجودات كالمكروفيزياء التي كشفت عن تركيب المادة والقوى الطبيعية في أدق دقائقها •

ب ـ العقل والقوى « العاملة » : الانسان كائن عامل وعاقل بآن واحد ولا يمكن الفصل بين الاثنين ولا في عملية من عملياته ، وانما هناك مجموعة قوى توجه العمل وتشرف على سيره أكثر من غيرها وهي التي ندرسها في (كتاب العمل) منها الغريزة والعادة ، والارادة والحرية[1] فالعقل عند الانسان يسيطر على الغرائز ويوجهها • والعادة تكتسب بسرعة اذا لم تقترن بالعقل • أما اذا اقترنت بالعقل فتنتقي أصلح الحلول وتوجه نحو أحسن الاهداف • أما الحرية فتبقى ضامرة كأنها غير موجودة اذا لم تتحد بالعقل •

---

(١) راجع للتوسع في هذا الموضوع كتاب العمل للصف الثالث الثانوي •

ج ـ **العقل في عملياته الخاصة :** ليس العقل عملية واحدة بل هو مجموعة عمليات درسنا أهمها وهي :

١ ـ انشاء المفاهيم بوساطة التجريد والتعميم • المفاهيم أطر عامة نستخدمها لتصنيف الموجودات فنقول مثلا ان المجتمع الاشتراكي يتألف من نقابات (نقابة المعلمين) واتحادات (اتحاد العمال ـ اتحاد الفلاحين الخ) وتعاونيات الخ ••• ونقول أيضا ان سكان الارض يتقسمون الى شعوب وطبقات ، ونقسم الادب الى انواع : قصة ، مسرح ، شعر الخ • فهذه الكلمات (نقابة ، اتحاد ، أمة ، طبقة ، قصة ، الخ) مفاهيم أو أفكار مجردة نستخدمها كلها اذا أردنا أن نرتب الواقع وندركه ادراكا نظريا •

٢ ـ انشاء الأحكام : بالحكم ننسب كما قلنا محمولا الى موضوع فيزداد فهمنا للواقع بادراك علائقه وتتمكن بذلك من توجيه سلوكنا توجيها ، فنقول مثلا : هذه أمة حرة وتلك مستعمرة ، هذا أدب ملتزم وذاك أدب غير ملتزم ، هذا مجتمع تقدمي وذاك مجتمع رجعي • والقوانين العلمية التي سندرس منها نماذج كثيرة في الباب الثاني ايضا أحكام • وكذلك النظريات الرياضية •

٣ ـ انشاء البرهان (المحاكمة) وقد أرجأنا دراسته للباب الثاني • وباستطاعة الطالب أن يفهم معنى كلمة محاكمة أو برهان اذا لاحظ كيف يحل معادلة جبرية أو يبرهن عن نظرية هندسية •

فالعقل اذاً هو الذي يصل بالمعرفة الى أعلى درجاتها ، أو هو القوة العارفة بالذات • ويمكن أن نقول أيضا انه القدرة على انشاء المعقولية أي انشاء الاحكام والمحاكمات التي يُجمع على صحتها كل البشر • واذا كان للعقل تأثير حاسم في العمل فلأنه نظري بالدرجة الاولى وسنرى البرهان على هذا القول في الفصول التـالية :

٢ ـ **العقل في مبادئه :**

ينطلق العقل في انشاء المعرفة من مجموعة مبادىء يطلق عليها اسم المبادىء العقلية وهي الأساس الذي يشيد عليه بناؤه وكلها بديهية أي واضحة وضوحا تامـا وهي :

أ ـ **مبدأ الهوية :** ويُصاغ على الشكل التالي (ما هو هو) أو آهي آ أو

الشيء عين ذاته • ويعبر عن التماسك المنطقي الذي يكون المطلب الاساسي للعقل• ومعناه بكل بساطة أني في محاكمة أو في نقاش عليّ أن أعرّف بتعريف واضح المفاهيم التي هي محور النقاش أو البرهان وأن أتقيد بتعريفي الى النهاية • فاذا انطلقت في نظرية رياضية من تعريف المثلث ، أو اذا انطلقت في نقاش من تعريف للأمة عليّ أن أتقيد بتعريفي والا ناقضت نفسي • ويتفرع عن مبدأ الهوية مبدآن •

١ ـ مبدأ عدم التناقض وصيغته (آ ليست لا آ) • ويعطي أرسطو الاولية في البرهان لهذا المبدأ فيقول : « يستحيل على صفة واحدة أن تنسب ولا تُنْسَب بذات الوقت وفي ذات العلاقة الى موضوع واحد » • فلا يمكن للانسان أن يكون بذات الوقت وفي موضوع معين عالما وجاهلا •

٢ ـ مبدأ الثالث المرفوع ، ويقال أيضا مبدأ حذف الوسط • ويُصاغ على الشكل التالي : اذا فرضنا أن (آ) تناقض (لا آ) ونسبنا لموضوع ما المحمول (آ) فلا يمكننا أن ننسب اليه بذات الوقت وبذات البرهان المحمول لا (آ) فبالنسبة لمقياس معين ، لا يمكن لانسان أن يكون إما طويلا أو قصيرا • والعدد اما زوج أو فرد ، ولا توسط بين الاثنين •

ولو تأملنا هذه المبادىء لوجدنا أنها :

بديهية : أي مما لا يمكن لانسان عاقل ـ أيا كان ـ الا أن يسلم بها • فمن البديهي أن الانسان لا يكون في وقت واحد حاضرا أو غائبا •

تعبر عن حاجة أولية وأساسية في العقل : ولذا فاذا ما خالفها خالف طبيعته وأنكر ذاته • فنحن نصف بفقدان العقل كل انسان ينسب بذات الوقت ولموضوع واحد محمولين كل منهما ينفي الآخر كأن يقول عن هذه الورقة أنها كلها بيضاء وسوداء •

صورية أو مجردة : والعقل لا يركن الا للصيغة المجردة • فالقانون لا يصبح نهائيا الا اذا أخذ شكل معادلة أو عبر عنه بأعداد ورموز وخطوط بيانية •

ب ـ مبدأ السببية : ويعبرون عنه بقولهم : لكل واقعة سبب ، فاذا تكررت الظروف ذاتها أدى السبب ذاته الى النتيجة ذاتها بشكل حتمي •

فالقسم الاول من هذه الصيغة معناه أن التغير الذي يطرأ على الوقائع مفعول أو يعبر عن كلية الارتباط السببي فكل واقعة نتيجة لواقعة أو لوقائع أخرى • اما القسم

الثاني (فاذا تكررت الظروف ذاتها أدي السبب ذاته الى النتيجة ذاتها) فيعبر عن المسألة التالية وهي : أن وقائع الطبيعة متشابكة، فالسبب والنتيجة محاطان بمجموعة وقائع أخرى يجب أن تتكرر كما هي حتى تحصل النتيجة عن السبب • فما من شك مثلا بأن تمدد المعادن هو نتيجة لارتفاع درجة الحرارة ، ولكن هناك ظروفا أخرى تؤثر في هذه الواقعة كالرطوبة وضغط الجو وغيرهما •

والفرق بين مبدأ الهوية ومبدأ السببية هو ان الاول يعبر عن وحدة العقل وتماسكه في حالة السكون ، أما الثاني فيعبر عن تماسك العقل في حالة الحركة ونقول على شكل آخر : ان مبدآ الهوية يعبر عن ضرورة التماسك الداخلي للمفاهيم في برهان ما ، أما مبدأ السببية فيعبر عن ترابط وقائع الطبيعة ترابطا ثابتا عبر التغيرات التي تطرأ عليها ، أو يعبر عن وجود ثوابت في الطبيعة هي التي يسعى علمنا لكشفها •

ان مبدأ السببية من مقومات العقل كمبدأ الهوية • فالذي يقول بوقوع حادثة دون ما سبب تحكم عليه بأنه فاقد للعقل •

جـ ـ مبدأ الحتمية : ويعبر عنه على الشكل التالي : كل واقعة تتحدد بشروط وجودها ، فاذا عرفنا هذه الشروط تمكنا من توقع وقوع الواقعة بشكل ضروري دقيـــق •

وسنرى فيما بعد الفرق بين مبدأي السببية والحتمية •

د ـ مبدأ الغائية : وهو مبدأ يشك بعض العلماء في قيمته كنقطة انطلاق في انشاء العلم ، على حين يراه غيرهم ضروريا كما سنرى ويصاغ على الشكل التالي : الوقائع مرتبطة بعضها الى بعض (والى جانب ارتباطها السببي) بفكرة هي : حكمة وجودها ـ والموجه لها ـ وأداة انسجامها في كل يجعل منها منظومة •

ما من شك أن للعمل الانساني ـ أيا كان ـ غاية ما • فالطالب يدرس لكي ينجح في الامتحان أو لكي يتثقف أو ليصبح طبيبا • والامة العربية تفقد مسوغات وجودها وتتحول الى دويلات اذا لم تكن غايتها الوحدة •

ولكن هل نستطيع أن نطبق هذا المبدأ على العالم المادي ؟

هل نستطيع أن نطبقه على مجموع الوجود ؟ واذا أجبنا بالايجاب فما غايـــة الوجود كله •

هذا السؤال يتخطى حدود علم النفس والمنطق ، ويتخطى أيضا العلم الوضعي ويثير مشكلة فلسفية سنعود اليها في الابحاث الاخيرة من هذا الكتاب •

وسنرى عند دراستنا للعلم في طرقه وأسسه النظرية ان العقل لم يبدل هذه المبادىء وانما حللها وأعاد النظر فيها ليوسعها بالاستناد الى التجربة • كما أنه وضع الحدود التي يمكن ان يُطبق بعضها ضمنا كمبدأ الغائية • فالهندسات غير الاقليدية ومبدأ اللا حتمية أو (اللا تعين) وغيرها مما نجده في العلم الحديث عمقت ووسعت دائرة المعقولية اذ أخضعت مبادىء العقل الاولي لنقد صارم •

٣ ــ العقل في نموه :

أ ــ العقل المكوَّن والعقل المكوِّن : يميز الفيلسوف الفرنسي أندره لالاند بين العقل المكوَّن والعقل المكوِّن ويشير بالاول الى مجموعة المعارف والعلوم التي تكوَّنت في عصر ما ، فأصبحت من مكتسبات حضارة ما حقائق راهنة ومعروفة • ولكن العقل لا يقنع بالحقائق التي ينشىء فسرعان ما يعيد النظر فيها • ان العقل لا يتنكر في أغلب الاحيان لما وضع ولكنه لا يقنع به فهو قوة تقدم لا حدود لها • فنظرية كوبر نيكوس في حركات الافلاك أخذت من نظرية بطليموس ما هو ثابت وأكملتها • وكبلر أكمل نظرية كوبر نيكوس • وهكذا كان شأن نيوتون بالنسبة لكبلر وشأن انشتين بالنسبة لنيوتون •

يبدو للطالب المبتدىء أن الفلسفات ينقض أو يهدم بعضها بعضها الآخر وهذا خطأ اذ أن كل فلسفة تكمل التي سبقتها وتوضح ما كان كامنا فيها •

ب ــ العقل قوة ناقدة : وليس النقد تهديما كما قلنا سابقا وانما هو تحليل الحقائق العلمية والفلسفية لاعادة النظر فيها واغنائها • ولهذا قيل ان العقل هو القدرة على اثارة المشكلات باستمرار • فلو اقتصر على فهم الذرة كما فهمها لافوازيه (أوكسجين ــ هيدروجين ــ آزوت وبقية العناصر) لما كشف التركيب الكهربائي للذرة •

ج ــ العقل قوة انشاء المعقولية : فهو الذي بدّد الخرافةوالسحر وكل الاوهام التي كانت تشل قوة التقدم عند الانسان القديم ، وأبدلها بالعلم والفلسفة وهما الى جانب الفن خير ما في الحضارة الحديثة • ان العقل هو الذي ينشىء المعرفة

التي تصبح في أعلى درجاتها علما وفلسفة • أما بقية القوى النفسية (الذاكرة ــ الادراك ــ الارادة ، الخ) فتقتصر على مساعدته في عمله هذا •

وهو أيضا الذي يكشف عن القيم الاخلاقية الكبرى كالمساواة والعدالة وبهما يقضي تدريجا على التفاوت بين الناس أو كالحرية التي حققت الديمقراطية في النظام الاجتماعي •

د ــ **العقل قوة انشاء المعرفة « الكلية »** : ونقصد بكلمة « كلية » الحقيقةالتي يقبل بها كل البشر من أي عرق أو طبقة أو جنس أو دين أو قطر أو زمان كانوا • فالحقائق الرياضية لا يختلف انسان في صحتها لانها نظرية أي فوق الزمانوالمكان، والحرية كهدف أخير للحياة الدنيا لا يناقش فيها انسان أيا كان مذهبه •

وعلى صعيد العقل يلتقي البشر •

ولهذا قال أرسطو قديما « لا علم الا بالكليات » وقال أيضا : « الانسان حيوان ناطق » أي ان العقل هو الذي يميز الانسان من الحيوان • فاذا ضعف العقل نقصت انسانية الانسان ، واذا ما مرض أصبح الانسان كالحيوان ، وقد رأينا أمثلة على ذلك عند ذكرنا في الفصول السابقة لبعض الامراض العصبية والنفسية •

والحقيقة « الكلية » نظرية خالصة وسنرى أن هذه الصفة النظرية للعلم هي التي مكنته من أن يضمن للانسان تلاؤما مع البيئة يتكامل باستمرار وقدرة على التطبيق العملي لا حدود لها ، اذ ان العمل الصحيح هو الذي يخطط له العقل تخطيطا دقيقا •

هـ ــ **قيمة العقل** : ان العقل لا يقتصر على نقد مكتسباته بل ينقد ذاته أيضا فيتساءل عن قيمته وهذا أعلى ما يصل اليه في مجال التساؤل وسنعود الى هذا الموضوع في الباب الثالث من هذا الكتاب •

خلاصة

١ ــ **المفهوم** : هو الفكرة العامة التي ينشئها العقل بالتجريد والتعميم ، والمفاهيم هي العناصر التي يتكون منها عالمنا العقلي .

أ ــ يمكن اعتبار المفهوم من حيث التضمن أو مجموعة الخصائص التي يتميز بها ، ومن حيث الشمول أي مجموعة الافراد التي يتسع لها .

ب ــ عوامل تكونه ، وهي : التجربة والعمل أي اتصالنا بالاشياء وسلوكنا تجاهها ــ اللغة والمجتمع أي الاسماء التي ندل بها عليه والتي تتعلمها من المجتمع ــ العقل الذي ينشئه اذ يعزله عن الواقع ليؤثر في هذا الواقع ويسيطر عليه .

ج ــ العلوم كلها مجموعة مفاهيم .

٢ ــ **الحكم** :

أ ــ تعريفه : الحكم نسبة موضوع الى محمول ويمكن اعتباره من حيث العملية التي تكونه فهو علاقة بين حدين (الموضوع والمحمول) ومن حيث مضمونه ويُطلق عليه عندئذ (قضية) .

ب ــ المفهوم والحكم : المفهوم عنصر أساسي من عناصر الحكم اذ تنسب صفة (مفهوم) الى موصوف قد يكون مفهوما أو شيئا واقعيا . والمفهوم مجمّع أحكام أو نتيجة لاحكام تكوّنه .

ج ــ الحكم ضمني أو صريح : ضمني في أحاديثنا العادية ، وصريح أي معبّر عنه في العلم .

د ــ يبدأ الحكم ذاتيا عند الطفل ويصبح موضوعيا عند الراشد .

هـ ــ الحكم عملي أو عقلي : فهو عملي عندما نقف موقفا معينا من الاشياء ، وعقلي عندما يصبح صريحا وموضوعيا كما في العلم .

٣ ــ **الاعتقاد** :

أ ــ تعريفه : هو تصديقنا لحكم نطلقه أو اعتقادنا بصحة هذا الحكم .

ب ــ أنواعه : عفوي عندما نعتقد دون أن نحلل اعتقادنا تحليلا عقليا ــ اجتماعي عندما نأخذه عن مجتمعنا ــ عاطفي عندما يستجيب لرغبة من رغباتنا أو يكون نتيجة لاهتمامنا ــ عقلي عندما يقترن بالحقيقة الموضوعية التي ننشئها موضوعيا •

٤ ــ اللغــة : هي تعبيرنا الضمني أو الصريح عما يجول في نفوسنا ، واللغة لا تنفصل عن الفكر وعن حالاتنا النفسية •

أ ــ اللغات : انفعالية في تعبيرنا عن عواطفنا وهيجاناتنا ــ اشارات ورموز ــ لكل فن من الفنون لغته (التصوير ــ الموسيقا ــ الشعر ــ الخ) ــ علمية •

ب ــ اللغة ظاهرة اجتماعية : في اللغة يظهر أثر المجتمع أكثر مما يظهر في أية عملية نفسية أخرى •

ج ــ اللغة عمل وفكر : عمل لأنها توجه سلوكنا ، وفكر لانها تعبر عن حالاتنا النفسية •

٥ ــ العقــل :

أ ــ عملياته : العقل عنصر أساسي في كل العمليات النفسية غير الآلية سواء أكانت عمليات معرفة أم سلوكية ، وله عملياته الخاصة هي المفهوم والحكم والمحاكمة •

ب ــ المبادىء العقلية : أي التي منها ينطلق العقل وهي : الهوية ــ السببية ــ الحتمية ــ الغائية •

ج ــ وظيفته : ينشىء العلم في كليته وشموله ، ينمو باستمرار اذ يعيد النظر في مكتسباته وفي ذاته • وعلى صعيده يلتقي البشر •

تمــارين

١ ــ ضع جدولا مؤلفا من عشرة مفاهيم تقتبسها من أحد كتبك المدرسية وبيّن شمول كل منها وتضمنه •

٢ ــ بيّن كيف ينشىء العقل مفهوم (الأمة) بواسطة التجريد والتعميم •

٣ ــ عد بذاكرتك الى دروس الهندسة الاولى التي تعلمتها اذا أمكن وبيّن كيف تكوّن عندك مفهوم المثلث أو المربع أو مفهوم الدائرة الخ وكيف اشترك

العمل والنظر في تكوين المفهوم • يمكنك أن تطبق العملية نفسها على مفاهيم التاريخ أو الجغرافيا أو الفلسفة أو غير ذلك •

٤ ــ لاحظ في محيطك طفلا في المدرسة الابتدائية وبيّن كيف يتكوّن مفهوم العدد عنده •

٥ ــ يبدو مفهوم العدالة وكأنه فطري في نفسك ، عد الى تجربتك وتساءل أهذا المفهوم سابق للتجربة أو لاحق بها أم أنها الاثنان معا •

٦ ــ قيل : الجاهل لا يشك ، لاحظ في مناقشتك مع رفاقك كيف ان الاحكام القطعية لا تصدر الا عن الذي يجهل موضوع المناقشة •

٧ ــ بيّن بالرجوع الى تجربتك كيف أن العدد الاكبر من أحكامنا ناتج عن عواطفنا •

٨ ــ هل حاولت في يوم من الايام أن تقنع رفيقا لك بأمر تعتقده ؟ بيّن الحجج التي استخدمتها في الاقناع : أهي عاطفية أم اجتماعية أم عقلية أم الكل معا ؟

٩ ــ ضع جدولا بالاحكام التي تتضمن تناقضا داخليا وهي كثيرة في كلام الناس اذ يكون المحمول غير متفق مع الموضوع •

١٠ ــ بيّن بتجربتك تأثير المجتمع فيك . استمد أمثلتك من العادات والتقاليد بشكل خاص •

١١ ــ يعتقد العرب بالوحدة والحرية والاشتراكية بيّن بالرجوع الى ماضيك كيف تكوّن لديك الاعتقاد بهذه القيم الكبرى أو بواحدة منها •

١٢ ــ لاحظ تعابير الهيجان على وجه صديق من أصدقائك وبيّن أن هذه التعابير بمثابة لغة •

١٣ ــ لاحظ النقاش الذي يدور بين أصدقائك كيف أن العبارة التي يطلقها الانسان تذهب به الى حيث لا يريد أن يذهب •

١٤ ـ وازن بين بعض مفردات لغتك العربية وبعض مفردات أجنبية وبيّن أثر المجتمع في تكوين اللغة •

١٥ ـ لاحظ كيف أن الانسان في النقاش الحاد يناقض ذاته اذ يستعمل كلمة واحدة بأكثر من معنى •

١٦ ـ لاحظ في حديثك الدور الهام الذي يلعبه مبدأ السببية في حياة الانسان •

أسئلة

١ ـ العلم نظري ، برهن على صحة هذا القول بأمثلة تستمدها من العلوم التي درست •

٢ ـ العلم نظري وعملي بآن واحد • برهن على هذا القول بالأسلوب السابق نفسه •

٣ ـ وازن بين الحكم والمفهوم •

٤ ـ وازن بين الحكم الذاتي والحكم الموضوعي وبيّن أن تقدم الانسان يتم بالانتقال من الاول الى الثاني •

٥ ـ المفهوم أهم موجود في الذهن أم في العالم الخارجي ؟

٦ ـ قيل : السلوك حكم ضمني • اشرح هذا القول •

٧ ـ دور الانتقاد في انشاء المعرفة الموضوعية •

٨ ـ ما الفرق بين لغة الشعر ولغة العلم ؟

٩ ـ برهن على أن اللغة بآن واحد فكر وعمل •

١٠ ـ برهن على صحة قول الأقدمين : الانسان حيوان ناطق •

نص اول

ادرس في هذا النص عملية التجريد •

الواقع عياني (أو مشخص) والواقعة معقدة ، والتجربة المباشرة حدس وحياة، ولكن لا الواقع بصفته واقعا ولا الواقعة بصفتها واقعة ، فكر • أما حدس الحياة فلا يستطيع تحليل ذاته ولا التأمل في وجوده وليس أيضا شعوريا ••• للتفكير طريقة واحدة لا طريقتان هي : التحليل والتمييز والتعريف اذ يعزل كل عنصر من عناصر الواقع عن غيره ومن ثم نوازن بينه وبين ما يشبهه في واقع آخر وتوحّد بينهما في تأليف (تركيب) وهذا ما نطلق عليه اسم تجريد • فلا فكر ولا علم بدون تجريد •

(دانييل بارودي من مقال في مجلة تربوية) •

نص ثـــان

ادرس في هذا النص نشوء المفهوم بواسطة التجريد والتعميم •

التعميم هو مجموعة العمليات التي ينتقل الفكر بواسطتها من عاطفة مغمضة الى شعور واضح بالعمومية ومن الفكرة المختلطة الى الفكرة المتميزة • التعميم تعريف والتعريف اكتشاف للعلاقة التي تكون المجرد • كل الافكار تمر بمرحلتين • في الاولى نشعر بها صفات أو كيفيات ، وفي الثانية نفكرها علائق بين عدة حدود • وهناك مفاهيم علائقية بطبيعتها منها : الكبير ، الصغير ، الطويل ، الخفيف ، السريع الخ •• ومنها ما ليست بعلائقية ومنها : الرائع ، الجميل ، العادل ، الخ ••

فالفكرة العامة (المفهوم) هي الفكرة المحددة ، وتنتج عن تجارب متعاقبة تتضح خلالها وتتحدد •

والتعريف من الوجهة النفسية نتيجة لتحليل وظيفته عزل المجرد بالموازنة مع حالات خاصة أو بالموازنة بين مفهوم ومفهوم آخر قريب منه ••• ويرافق التحليل التأليف (التركيب) الذي يدمج في وحدة كلية العناصر التي عزلها التجريد •

(« ألبيرت برلود » ، التفكير بواسطة المفاهيم) (بتصرف) •

نص ثالث

هذا النص يبين حقيقة اللغة الاجتماعية ، افهمه بدقة .

اللغة مؤسسة أو عمل اجتماعي يتسجل في فكر كل فرد من أفراد الجماعة ، أو هي مجموعة الاصطلاحات تتبناها هيئة اجتماعية ما لتنظم بواسطتها عملية التخاطب بين أفرادها . انها توجد بنوع من التعاقد . وكل فرد يكتسبها بنتيجة تدرب طويل أو قصير ثم ينقلها الى غيره . ولا يمكن لفرد أن يكونها وحده ولا أن يحد من انتقالها بين أفراد الجماعة .. ولا يبدو عمل الفرد الا في طريقة استعمالها كلغة . أما القسم الفردي من اللغة فتطلق عليه اسم (كلام) . وبهذا تتميز اللغة من الكلام.

فالقيمة اللغوية شيء اجتماعي اذ أن الجماعة هي التي تعطي للاشارة اللغوية (الكلمة) دلالتها وفي هذه الدلالة يلتقي الأفراد

فاللغة تؤلف جملة منظمة تنظيما محكما يفرض ذاته على الافراد الذين يتكلمونها، أو هي مجموعة عادات لغوية خاصة بمجتمع ما ، وبها تتحدد عقلية الجماعة . ان التفاهم يفترض التجانس .

وكل وحدة لغوية تعبر عن وحدة حضارية ، فاذا تعددت اللغات ، تعددت الحضارات ، وتطور اللغة يدل على تطور المجتمع .

(« هانري دلاكروا » اللغة والفكر) (بتصرف) .

نص رابع

في هذا النص يعرّف أندره لالاند العقل تعريفا دقيقا .

عندما تتحدث عن العقل ، يستطيع فكرنا أن يتجه شطر وظائف ذهنية مختلفة أشد الاختلاف . ولذا نبادر الى القول ان ما نبحث فيه هنا لا يقتصر على ملكة المحاكمة والحساب فقط لان استعمال العقل بهذا المعنى ، وقد كان يسود العصر الوسيط ، انما أضحى اليوم باليا ... ان الملكة التي يتناولها بحثنا هي التي يشبهها

ديكارت بالحس السليم ... عندما نقول عن شخص : انه عاقل ، وعندما نعارض العقل بالهوى ، أو عندما نعترف بأسف ، قائلين : « ان العقل ليس هو الذي يسير الحب » .

ان الايمان بالعقل ، بهذا المعنى ، انما يدل على قبولنا أن كل انسان سوي يتحلى بقدرة رئيسية تمكنه من معرفة أن بعض القضايا حقيقية أو زائفة ، كما تمكنه من تقدير فوارق الاحتمال ، وتمييز (الأحسن) من (الأسوأ) في مجال العمل ، أو في حقل الانتاج . وهو لا يستطيع ذلك على وجه انفعالي وحسب ، أي بضرب من تنبيه انطباعي كالتنبيه الذي يشعرنا بأن جسدنا مرتاح ، بل في اهاب أفكار عامة وأحكام واعية تمكن صياغتها بدون غموض ، وهذه الافكار تفرض ذاتها بعلاقاتها الفكرية على العقول ذات النوايا السليمة التي تضعها في منزلة أسمى من أن تطالها المناقشة .

(أندريه لالاند ـــ العقل والمعايير . تعريب الدكتور عادل عوا . الصفحتان ٦٢ و ٦٣) .



فهرس الجزء الاول





السعر : ١٢٥ ل.س

مطبعة الإنشاء